374

HARLEQUIN

روايات أحلام

عاصفة في قلب

كيت والكر

www.elromancia.com
مرمورية

عاصفة في قلب

كان رامون داريو يسعى للحصول على شركة مدرانو بكل قواه ، لكن شرطاً غريباً اعترض طريقه ، عليه الارتباط باستريلا مدرانو السيئة السمعة...

لم يتخيل رامون أنه سيتعرض يوماً لمثل هذا الموقف ، إلا الزواج من تلك المرأة : مستحيل !!

لكن استريلا لم تكن كما يتصور . فسحرها وجمال عينيها لم يفارقا خياله للحظة... وبدأ يفكر... لم لا؟ فزواج المصلحة وزواج الرغبة قد يجتمعان ويحققان صفقة رابحة في النهاية .

لبنان :	2500ل.ل	البحرين :	1دينار
سوريا :	75ل.س.	السعودية :	10ريال
الأردن :	1.5دينار	مصر :	8جنيه
الكويت :	750فلس	المغرب :	15درهم
الإمارات :	10دراهم	تونس :	2دينار
قطر :	10ريال	عمان :	1ريال

ISBN 9953-15-328-0

١ - لا، أبداً!

وقفت إستريلا وأصابعها على مقبض الباب، محاولة التمسك بالهدوء. كانت بحاجة إلى أن تعدّ نفسها لهذه المواجهة، لهذا الاجتماع بالرجل الذي ينتظرها في الغرفة.

ظنت أن كل هذا انتهى، وأن أباها تخلى عن فكرة تزويجها... لكنه دخل غرفتها لتوّه وأخبرها أن الرجل الذي عقد معه اجتماع عمل هاماً بعد ظهر هذا اليوم، يريد أن يراها الآن. فأدركت، وقد تملكها اليأس، أنها كانت مخطئة، وأن ذلك ابتدأ من جديد.

لو كان بإمكانها الهرب لفعلت، لو كان بإمكانها أن تختبئ في مكان ما حتى يفقد هذا الرجل صبره ويخرج غاضباً، لسلكت هذا السبيل. لكن التجربة علمتها أن المواجهة هي السبيل الوحيد.

وهكذا، أخذت نفساً عميقاً آخر، ومررّت يداً مرتجفة على شعرها الحريري الأسود، ثم استقامت في وقفتها، ودخلت الغرفة مكرهة.

كان واقفاً أمام النافذة الكبيرة ينظر إلى الحديقة.

- هل أنت السنيور داريو؟ السنيور رامون جوان فرانسيسكو داريو؟

انعكس التوتر في صوتها فجعله بارداً نافراً كلياً، ما جعله يلتفت مجفلاً: «نعم، وأنت إستريلا مدرانو؟».

كان صوته متصلباً نافراً كصوتها.

- قال أبي إنك تريد أن تراني.

لم تزعج نفسها بإجابته عن سؤاله، فقطب جبينه ربما غضباً من هذه المقابلة ومن برودة صوتها.

ولكن ماذا كان يتوقع؟ أن تمضي الوقت بالترحيب المهذب به؟ معرفتها بسبب قدومه يمنعها من التحدث معه بلباقة.

- نعم، أريد أن أتحدث إليك.

- لكنني فهمت أنك قدمت إلى هنا لرؤية أبي؟

- نعم، أريد أن أشتري منه شركة التلفزيون.

- وهل نجحت؟

- ما زلنا ... نتفاوض.

فكرت ساخرة في أن هذا طبيعي. إنهما طبعاً يتفاوضان. البيع لن يتم، إلا إذا استجاب هذا الرجل لمطالب أبيها، وإذا بقي لديها أي شكوك فقد تبددت الآن. (ما زلنا نتفاوض) تعني أنه واحد من صف طويل من العرسان الذين ظن أبوها أنه اشتراهم لها.

سألته وهي تمرر يدها المبلّلة بالعرق على تنورتها تسوّيها: «هل هي أغلى مما تستطيع دفعه؟».

- لا، أبداً، بإمكاني أن أدفع أي ثمن.

وتقدّم منها بخطوات نشيطة قوية تنم عن طاقة كبيرة. طاقة يُفترض أن تُكبح وتُلجم وتبقى تحت السيطرة. رؤيتها له وهو يتحرك، جعلت بدنها يقشعر تجاوباً، لكنها لم تعرف ما إذا كان ذلك بسبب الخوف أم العداء. جلّ ما أدركته هو أن غرفة الجلوس الفسيحة بدت لها فجأة أصغر وأضيق من أن تتسع لقوته البدائية.

- أنت إذن متلهف لشراء الشركة؟

- نعم، نعم، هذا صحيح.

لابد أن هذا صحيح ما دام مستعداً للاتفاق مع أبيها... ما دام مستعداً لبيع نفسه... ولأن يشتريها لكي يحصل على ما يريد. لقد قرر أبوها أنه وجد، هذه المرة، الرجل المناسب.

لو كان لديها عقل، لأخبرته أنها تعلم ما يجري بالضبط، وأن لا فائدة من الاستمرار في هذا، وأنها لا تريد أن تصغي إلى عرضه للزواج. ومهما كان الأمر الذي أقنعه أبوها به، فهي لن تقبل به مطلقاً.

لم يكن رامون داريو كما توقعته، فهو وسيم للغاية، خصوصاً في مظهره ولونه.

إنه أطول بكثير، ورغم أن شعره أسود، إلا أن الومضات النحاسية التي تتخلله كانت تلمع في أشعة شمس العصر التي تتسرب من النافذة. أما عيناه فهادئتان صافيتان بلون سماء غسلتها عاصفة، كما بدت وسامته خشنة تفيض بالرجولة، بينما لوّحت الشمس بشرته التي لم تكن سمراء بطبيعتها كبشرة أبيه.

لكنها كانت قد نسيت أن رامون داريو نصف أسباني، فأمه التي ماتت منذ سنوات وهو طفل، إنكليزية.

إذا ما وقف بجانب أبيه أو أبيها، لبدا نحيلاً. إنما بدا واضحاً أن جسمه مشدود العضلات، فقد كانت كتفاه عريضتين تحت سترته الأنيقة بينما بدت ساقاه ثابتتين على السجادة الحمراء.

سألته وكأنها لا تعلم الجواب: «لماذا تريد أن تراني؟».

- أريد أن أتحدث إليك.

- وماذا تريد؟

لم يعجبه موقفها، وقد بدا هذا واضحاً. لم يبارح العبوس وجهه، الذي ازداد قسوة وخطورة، لكنها لم تهتم.

أرادت أن تنتهي من هذا الموضوع، لتعود إلى غرفتها مرة أخرى، أو بالأحرى إلى عزلتها التي اعتادتها. فتبتعد عن حملقة أبيها فيها وعن محاضراته واعتراضاته الغاضبة التي عاشت معها طويلاً وكأنها لم تشاهد على وجهه تعبيراً آخر. أرادت أن تبتعد عن المجتمع ولومه الدائم لها والهمس عنها، وعن الأحاديث التي تتوقف فجأة عندما تدخل غرفة ما، ليقول الجالسون: «هذه هي... هذه ابنة مدرانو، الفتاة التي اختطفت كارلوس بيريا من زوجته فتركها مع ولدين صغيرين لتعيلهما وحدها، بينما هو في سن تسمح بأن يكون والد هذه الفاجرة الصغيرة...».

- ألا تجلسين؟

- وهل أنا بحاجة إلى ذلك؟

لم يكن ثمة سبب يجعل قلبها يخفق بهذا الشكل، لمجرد التفكير في الاقتراب منه. لماذا تنبّهت حواسها بهذا الشكل المؤلم لوجود هذا الرجل؟ حتى رائحة عطر بعد الحلاقة الخفيف التي حملها معه الهواء، جعلت أعصابها تتوتر. وسرت الحرارة في عروقها فأخذت تتململ في وقفتها بضيق.

لم تقترب بهذا الشكل من أي رجل بعد كارلوس.

- أفضل الوقوف.

- ظننتك تفضلين أن تكوني مرتاحة؟

- أتريد الحقيقة؟ أفضّل أن أكون في أي مكان آخر غير هذا.

- أطمئنك إلى أنني لن أستبقيك طويلاً.

- وأنا أطمئنك إلى أنني لا أهتم بما تريد أن تقوله.

الفحيح الذي صدر من بين أسنانه، وحملقته الباردة فيها، أنبآها

بغضبه البالغ.

- هل لي أن أقترح أن تنتظري ريثما أقول شيئاً؟

كان يتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها منذ دخلت إلى الغرفة، وقد جعلتها نظراته الفولاذية الباردة تشعر وكأنها رأس من الماشية مرشح لنيل جائزة.

لم يجعلها أيّ شخص من قبل تشعر بأنها سيئة إلى هذا الحد. وتملّكتها رغبة في أن تمسح هذه النظرة من عينيه، وفي أن تخبره رأيها فيه لكن السيطرة التي تعوّدت أن تمارسها على نفسها منعتها من ذلك.

وأخيراً استطاعت أن تقول: «تكلم إذن».

- لاباس، سأفعل.

مرّر يده القوية في شعره الأسود الكث اللامع يشعثه بعنف قبل أن يعيده إلى ترتيبه السابق. وفجأة، وبالرغم منها، وجدت نفسها تأسف لذلك... تلك اللحظات السريعة، رأت في رامون داريو رجلاً آخر... رجلاً يختلف جداً عن ذلك الشخص المتحفظ غير الودي الذي رأته حين دخلت الغرفة. ووجدت نفسها تفكر في أنه سيبدو بهذا الشكل في السرير: شعر مشعث وعينان ناعستان أوهنهما النوم، تبتسمان في وجه المرأة...

وذهلت وهي ترى هذه الصورة تسرّع خفقات قلبها. لم يتملكها شعور كهذا قط من قبل، حتى مع كارلوس.

كارلوس الذي كان بداية كل هذا، الرجل الذي ما زال تأثيره الضار يفسد حياتها حتى بعد كل هذا الوقت، حتى من القبر. لكن كارلوس لم يؤثر فيها بهذا الشكل قط.

ما الذي تفكر فيه؟ شيء ما في هذا الرجل أثار كل ما فيها من مشاعر أنثوية.

- ثمة مشكلة... لدينا مشكلة.

أعادها صوت رامون داريو إلى الواقع المرّ بعنف، ماحياً تصوراتها مرة أخرى.

- ماذا تعني بقولك (لدينا)؟ لماذا تقرن بيتنا، نحن الإثنين، بهذا الشكل؟

- لأن أباك قرن بيتنا.

ها قد وصلا إلى الموضوع. وفيما اعتادت في المرات السابقة أن تنهي الموضوع في أسرع وقت ممكن، إذا بها تذهل وهي ترى نفسها لا ترغب في ذلك. تمنت لو تستطيع أن تضع يدها على فمه لتمنعه من النطق بعرض الزواج.

فإذا عرض عليها الزواج، عليها أن تعطيه جواباً.

والجواب الرفض، فهذا هو جوابها على زواج محترم يؤمنها مادياً. فإذا ظن رامون أنه سوف يقتنيها كجزء من اتفاقية العمل، للحصول على شركة التلفزيون، فالجواب سيكون كجوابها للآخرين. أي الرفض!

لكن شعوراً بالأسف تملكها. ولأول مرة، منذ بدأت حملة أبيها عليها، أخذت تتساءل عما تفعله.

وتابع: «لقد اقترح أبوك سعراً يمكنني قبوله، وأنا أريد الشركة! ولكن هناك شروطاً، وهذه الشروط تتعلق بك. أبوك يريدني أن أتزوجك، وهو لن يبيعني الشركة إلا بهذا الشرط».

كان هذا ما توقعته. ومع ذلك، تملكها شعور هائل بالخسارة لإدراكها ألاّ رجوع في الأمر. لم يكن ثمة أمل في أنها وجدت، هذه المرة، رجلاً لا يمكن شراؤه.

ظهر هذا الأمل الضئيل الغبي من مكان ما. فرامون داريو لم يعالج

الأمور بالطريقة التي توقعتها. في الواقع، لم يواجه الوضع كما واجهه الآخرون، وبالتالي، لم تعرف كيف تتصرف.

لكنه يبدو كالآخرين. فهو مصمم على أن يحصل على ما يريد مهما كانت العقبات التي تقف في طريقه، ومن دون الاهتمام بمشاعرها.

وعندما منعها اليأس وخيبة الأمل من الكلام، قال: «إستريلا؟ هل سمعت ما قلته؟ أبوك يريدني أن أتزوجك».

فقالت برقة: «أعرف هذا».

كان صوتها من الرقة والنعومة بحيث لم يسمعه في البداية، لكنه استوعب الكلمات في النهاية فقال غير مصدق: «أنت تعرفين!».

كيف تتقبّل الأمر بهذا الهدوء؟ غير مبالية بما يريده أبوها؟ وتملكه اشمئزاز بالغ... هل هي شريكة في هذا الأمر منذ البداية؟ وهو كان مقصوداً منذ البداية... هل اختارته وأخبرت أباها بذلك؟ هذه الفكرة جعلته يشعر وكأنه قطعة لحم للبيع... وتملكه الغضب وهو يسألها مرة أخرى بصوت غليظ: «هل صحيح ما أسمع؟ هل قلت إنك تعرفين هذا؟»

- نعم.

كان صوتها أكثر انخفاضاً من قبل، لكنه راقب هذه المرة حركات شفتيها، فتأكد من قولها هذا.

- وكيف عرفت ذلك؟

وعندما لم تجب عاد يكرر: «كيف عرفت ذلك؟ أظن أنّ لي الحق في الاستفسار وأنا أراكما تعبثان بحياتي؟».

عندئذ تحركت، فرفعت رأسها متمردة وعيناها السوداوان ملتهبتان: «لابأس، يمكنك أن تحصل على توضيح، لكنني أحذرك من أنك لن

تحب ذلك. أتظن نفسك الأول؟ أتظن نفسك الرجل الوحيد الذي أراد أبي أن يشتريه لي؟».

- ألست كذلك؟

هزت رأسها بعنف فتطاير شعرها الأسود حول وجهها الذي شحب فجأة: «أنت لست حتى الثاني... أو الثالث».

أتراها تحاول أن تحطم كبرياءه كليّاً؟ فتضع أمامه قائمة باسم كل رجل اختير قبله؟ كل رجل يمكن أن تختاره؟

- دعيني من التفاصيل واعطيني العدد.

إنها إستريلا مدرانو كما توقعها. لقد ذهل لمظهرها، لأنها لم تكن كما توقع. أول نظرة إليها أثارت دهشته فأخذ يحملق إليها بحيرة.

تصوّرها صغيرة الجسم شهوانية وعنيفة قليلاً، فامرأة بسمعة إستريلا مدرانو لابد أن تكون عنيفة. كما توقع شعراً قصيراً وتنورة قصيرة، وتبرجاً مفرطاً وتمرّداً يظهر في قصتها.

لكنها، كانت أطول وأرشق وأهدأ وأكثر أناقة مما تصور. من وجهها البيضاوي بوجنتيه المرتفعتين، إلى قدميها النحيفتين في الحذاء الأسود الخفيف البسيط، كانت مثالاً للتحفظ. وحده شعرها الكث الحريري اللامع المنسدل على كتفيها يشير إلى ميزة أساسية فيها هي عدم الانضباط الذي لا يتناسب مع ملابسها المتزمتة كملابس الراهبات. إنها مذهلة رائعة الجمال، لكنها صلبة باردة كماسة متألقة.

إذا لم يصدّق الشائعات عنها من قبل فقد صدقها الآن. نعم، لقد صدقها، ولم يبق إلا أن يسمع الإثبات منها... ربما ليس بالنسبة إلى الماضي، ولكن بالنسبة إلى خططها مع أبيها لاختيار الفريسة، ثم اصطيادها ومحاولة الإمساك بها: «كم شخص؟».

- عشرة. كان هناك تسعة من قبلك، وأنت العاشر.

جاء جوابها صلباً بارداً كالحجر، ومالت برأسها قليلاً وهي تسمع شتيمته البذيئة، لكنها أردفت: «سبق وأنذرتك بأنك لن تحب هذا».

- أنت على صواب إلى حد لعين. لم أحبه، ولن أحبه كما لا أحبك، ولا أحب أن أكون ضحية للاحتيال.

- أنا لم أستعمل الاحتيال.

وسكتت وهي ترى الغضب على وجهه، فقال: «لكنك كنت على علم بهذه الخطة».

- أنا... نعم.

- ولم يخطر لك أن من التهذيب أن تطلعيه على ما تعرفينه...؟

كلامه جعلها ترفع رأسها لتتشابك أعينهما وكأنها تتحداه أن يستمر في استجواباته هذه، ثم أجابت بحدة: «وأنت الرجل الممتاز الذي يحق له أن يتحدث عن التهذيب؟ أو عما عليّ أن أقول أو لا أقول؟ على أيّ حال، أنت من وافق على خطة أبي هذه».

لكن رامون لم يقبل هذا المنطق، فهو يعرف بكل وضوح ما كان مفروضاً به أن يفعل وذلك منذ اللحظة التي نطق فيها الفريدو مدرانو اقتراحه المخيف. لا، لم يكن ذلك اقتراحاً بل أمراً صدر عن رجل مستبد... يتوقع أن يهب كل شخص ليلبيّ أوامره.

ولأن رامون كان يعلم ما يتوقعه، أجابها بعنف: «لا. أبداً».

فسألته رافعة حاجبها ساخرة: «لا؟ ما الذي تفعله هنا إذن؟».

وكان هذا سؤالاً طرحه على نفسه. ماذا يفعل هنا حقاً؟ يعرض نفسه على ذات العينين السوداوين.

هذه المشاكسة الرائعة الجمال، السوداء العينين، الممتلئة الشفتين.

هذه المشاكسة، السوداء العينين التي جعلها الغضب تنتصب في

وقفتها، وتضع يديها على وركيها الرشيقين، غضب صبغ بشرة وجهها الذهبية بالاحمرار.

كيف يمكنها أن تفعل هذا؟ كيف فعلت ذلك؟ كيف استطاعت أن تكون بهذا التهجم والسخرية والعداء... وتبقى، مع ذلك، بهذا الجمال والإغراء اللذين يمنعانه من التفكير منطقياً؟

- أنت تعلمين جيداً لماذا أنا هنا... جئت لكي...

- أعلم أنك جئت في الأساس للتفاوض لشراء الشركة. لكنك اعترفت بأن أبي لن يبيع...

- إلا بشروطه.

فقالت ساخرة: «إلا بشروطه... لكنك بقيت، عجباً!».

- أنت تعرفين لماذا بقيت.

زمجر بذلك وهو يجاهد كي يمنع أفكاره من التحوّل عن الموضوع، وكي يكبح مشاعر تملكته فجفّ لها فمه وخشن صوته وهو يقول: «بقيت هنا لأنني أردت التحدث إليك».

- تريد أن تطيع أوامر أبي وتجعلني أتزوجك!

ودارت حول الكرسي الجلدي الكبير ووقفت خلفه فشكّل ظهره العالي حاجزاً بينهما ودرعاً للدفاع وهي تواجهه مرة أخرى.

قال يجيبها: «يمكنك أن تظني ذلك إذا شئت».

- لقد أخبرتني عن مدى رغبتك في الحصول على شركة التلفزيون.

احتجاب جسدها خلف الكرسي، كان من المفروض أن يسهّل عليه التفكير بوضوح. لكنه عجز عن ذلك، وكل ما استطاع التفكير فيه هو قوامها الممشوق المغري. وشعر بنار تسري في عروقه، بينما عجز عن التفكير بوضوح.

- أريدها... ولكنني لست متلهفاً إليها... لست متلهفاً إلى حدٍّ يجعلني أرتبط بك!

أصاب منها وتراً حساساً، كما لاحظ عابساً. فقد أجفلت، واشتدت أصابعها المطلية الأظافر على ظهر الكرسي، وانغرزت أظافرها في الجلد. شماتته بها أثارت أسوأ مشاعره وأشدها حقداً وحثته على توجيه ضربة أخرى ما دام بإمكانه ذلك.

- أنا لا أفكر في الزواج حالياً. لماذا أقيّد نفسي بينما هناك المئات من الفتيات الجميلات في «كاتالونيا» وخارجها؟ وحتى لو أردت أن أتزوج فكرامتي تدفعني لأن أختار عروسي بدلاً من أن أتزوج من فتاة عليّ أن أرتشي لأتزوجها.

- حسناً، لا تقلق. فلن تسنح لك فرصة لذلك!

أتراه يتبجح بقوله هذا؟ وكافحت إستريلا لإخفاء أثر ما شعرت به لتهجمه هذا، رافضة أن تدع دموعها تنهمر.

لقد بكت ما فيه الكفاية في الماضي على رجال لم يكونوا يستحقون ذلك، وعلى رجل واحد تحديداً. وبعد معاملة كارلوس لها بكل تلك القسوة والوحشية، أصبحت الإهانات التافهة كهذه مجرد كلام.

ولكن، ولسبب ما، طعنة هذا الرجل كانت مؤلمة وقاسية للغاية، فقالت بغضب عنيف: «لن أتزوجك ولو كانت حياتي ومستقبل الجنس البشري متوقفين على ذلك، هذا إذا طلبت يدي».

- وهذا لن يحدث.

فعادت تكرر وهي تصرف بأسنانها: «إذا طلبت يدي، سأرفضك وأنا سعيدة للغاية».

فرد عليها بحدة: «حسناً، استمتعي بأحلامك هذه، فهذا كل ما

ستحصلين عليه. لن تشدّي الحبل حول رقبتي، حتى وإن كنت أكثر النساء اللاتي رأيتهن جاذبية».

٢ - لسنا شريكين

أكثر من رأيت جاذبية...

لم تصدق إستريللا ما سمعت. هل قال رامون هذا حقاً؟ وتملكها إحساس بالنشوة جعل رأسها يدور بلذة أنثوية مفاجئة، ولم تستطع أن تمنع ابتسامة خفيفة بدت عند زاويتي فمها. كانت سريعة كخفقة القلب لكنه لمحها فازداد عبوساً وقال ساخراً: «لقد أعجبك هذا، أليس كذلك؟ أعجبتك فكرة أن أراك مثيرة؟ حسناً، لا تظني أن بإمكانك أن تستخدمي هذا لمصلحتك. أنا لست من اللهفة بحيثِ أرغب في ما نبذه كارلوس بيربا... حتى لو ترافق ذلك مع رشوة ضخمة هي شركة التلفزيون، بل سأرغب في أكثر من ذلك بكثير».

- حسناً، كان بإمكانك أن تحصل على أكثر من ذلك.

لم تعد ابتسامة إستريللا تحمل شيئاً من ذلك الدفء السابق، وهي تتابع: «لو لعبت أوراقك جيداً لمنحك أبي كل ما تريده، حتى القصر واللقب الذي يتماشى معه. وإذا أعطيته وريثاً، فلن يكون لامتنانه حدود».

حيّرها التعبير الذي بدا على وجهه، وصمته للحظة قبل أن يعود باهتمامه إليها. لقد قالت شيئاً ما لمس منه وتراً حساساً...

ولم تكد تعيد صياغة السؤال حتى تغير التعبير الذي على وجهه مرة أخرى، وعاد ينظر إليها بعنف: «شكراً، ولكن، لا. حتى مع هذه الحوافز، ما زالت الصفقة غالية جداً».

فردت عليه بحدة: «لم أكن أعرضها عليك، إنما كنت أريك ما خسرته. مامن صفقة، يا سيد داريو، ولن يكون هناك صفقة أبداً . على الأقل بالنسبة إليك».

وسارت إلى الباب، وأدارت قبضته بعنف متمنية لو أنها عنقه، وكشرت لهذه الفكرة، ثم قالت وهي تفتح الباب على اتساعه: «انتهت المفاوضات وبالتالي الاجتماع، وأكون شاكرة لو غادرت الآن».

- بكل سرور.

كان جوابه بحدة السيف، مصحوباً بابتسامة صغيرة ساخرة وانحناءة احترام زائفة في اتجاهها قبل أن يغادر.

خطواته الواسعة وتصلب جسده أنبأته بمزاجه المتوتر. بدا غاضباً للغاية، ومزدرياً لها كلياً، متمنياً لو كان في أي مكان غير هذا المكان، متلهفاً إلى الخروج بأسرع ما يمكن.

وكان من السخافة أن يتملكها فجأة مثل هذا الشعور الغامر من الأسف والحسرة المدمّرة وهي تدرك أنه سيرحل بعد دقيقتين أو أقل، ولن تراه مرة أخرى.

ولكن أليس هذا ما تريده؟ أن تطرده من حياتها ولا تراه بعد ذلك أبداً؟ فلا تضطر إلى النظر في عينيه لترى فيهما الاحتقار البارد كالثلج الذي جعلها ترتجف كورقة في مهب الريح.

كان هذا ما تريده. لكنها، حين رأته، وقعت فريسة مشاعر مفاجئة. لم تعرف كيف... ولم تعرف لماذا، ولكن شيئاً ما في هذا الرجل أصاب حواسها الأنثوية كلها. لقد تمكنت من ترك الآخرين كلهم يرحلون دون ذرة شك... ولكن ليس هو. لم يعانقها، حتى أنه لم يلمسها... وإذا تركته يذهب الآن بهذا الشكل فلن يفعل أبداً.

رغبتها في أن تعرف تأثير عناق هذا الرجل، ولو مرة في حياتها،

كانت قوية إلى درجة كادت معها أن تنطق بها، حتى أنها فتحت فمها لتتوسل إليه أن يبقى، ولو لحظة.

لكنها لم تجرؤ، بل انعقد لسانها وأخذت ترقبه بصمت وهو يتابع سيره نحو الباب.

لكنه لم يخرج من الباب، بل انعطف قليلاً، فأصبح قربها. حذرتها النظرة التي في عينيه، لكن قبل أن تدرك نيته، كان قد تصرف.

أمسك بكتفيها وجذبها إليه بحركة مفاجئة. لم يكن لديها وقت لتفكر أو تقاوم عندما رفع ذقنها بيده لتشتبك عيناها الغاضبتان بعينيه الرماديتين الهادئتين المقيّمتين. قال بصوت ثخين حمل غضباً مكتوماً وشعوراً آخر جعلها ترتجف في أعماقها: «سأذهب، وبرغبتي، ولكن ثمة ما عليّ أن أقوم به قبل ذلك».

وتجوّلت عيناه العاصفتان على شفتيها قبل أن تعودا عيناه وترتفعا إلى عينيها السوداوين: «ثمة ما أردت القيام به منذ رأيتك. شيء كنت تغرينني على القيام به منذ دخلت من هذا الباب».

حاولت أن تحتج لكن الكلمات اختنقت في حلقها عندما عانقها بجوع بالغ اكتسحها كموجة مدّ عارمة.

موجة عارمة اكتسحتها بقوتها، وطردت كل الأفكار من ذهنها حتى لم يبق فيه سوى المشاعر. وتسارع النبض في صدغيها، وارتفعت حرارة جسمها، حتى أصبح العالم يدور حولها... وحول رامون.

رامون الأسمر القوي الضخم، بذراعيه اللتين تضمانها، وأنفاسه التي تلفح وجهها، وعطره الغامض، وحرارة جسده التي غمرت كل عصب وكل خليّة فيها.

لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تبادله عناقه وارتفعت يداها إلى كتفيه العريضتين تتلمسانهما وتتحسسانهما من فوق السترة.

- رامون...

خرج الاسم من فمها في تمتمة مختنقة من دون سيطرة أو تفكير واضح...

اكتسحتها حرارة عنيفة لم تستطع معها أن تمنع نفسها من أن تلتصق به.

أرادت المزيد من عناق رامون، من حرارته، من قوته، والمزيد من الأحاسيس، والمشاعر العنيفة التي تدير رأسها.

وفي اللحظة التالية، تملكها الذعر وهي ترى أن صوت تنهدها كان أشبه بصفعة على وجه رامون، أو بصيحة تحذير، إذ جمد مكانه فجأة ثم رفع رأسه ببطء لينظر في أعماق عينيها.

وعندما اخترقت نظراته الفولاذية الباردة عينيها اهتزت وهي تشعر بالذهول، وبعدم الرغبة في العودة إلى الواقع. التحول المفاجئ من ذروة المشاعر المحمومة إلى هذه اللحظة الباردة الجافة جعلها تشعر بالغثيان، وأخذت تكافح بيأس، بعد أن أصبحت نظرات رامون بعيدة عن نظرات العاشق مليون ميل.

حاولت أن تغطي ملامحها بقناع من اللامبالاة، إنما لم يكن لديها فكرة عن مدى نجاحها.

وزفر رامون متمتماً: «يا إلهي... يا الله».

بدت في حالة ذهول، كحاله. المشاعر المحمومة التي تفجرت بينهما فجأة، جعلته يشعر بالدوار... وفجأة وعلى غير توقع، جرى بينهما ما رغب فيه منذ رآها.

لقد أرادها، ولم يستطع أن يكبح رغبته في معانقتها. لم يستطع أن يمنع نفسه، حين سنحت له الفرصة، من أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها... حتى سقطت الغطرسة عن وجهها.

ما لم يتوقعه هو تجاوبها. ظن أن عناقها سيشبه معانقة جدار من الآجر؛ صلابة وبرودة وعناداً، لكنها كانت ناراً بين ذراعيه. لقد اشتعلت كالألعاب النارية، لتصبح من حرارة ولهب، عندئذ فقد سيطرته على نفسه، ولم يعد يعلم أين هو وما يفعل، ولم تعد لديه فكرة عما يحدث. كل كيانه كان مركزاً على رغبة واحدة، وهي التعرف إلى هذه المرأة قدر إمكانه. لكن تنهدها الخافت نبهه إلى المكان الذي يتواجد فيه وإلى من تكون، فعاد إلى الواقع، وعادت إليه رجاحة عقله ترغمه على الأبتعاد عنها وعلى السيطرة على نفسه والإحباط الذي يتملكه.

- حسناً، ماذا عن ذلك؟

أرغم نفسه على الكلام بهدوء وكأنه لم يتأثر على الإطلاق بتلك الموجة المفاجئة من العواطف المحمومة التي غمرته. فقد استطاع أن يسيطر على صوته، مانعاً الكلمات من أن تتهدج أثناء نطقه بها.

قال كلاماً بدا وكأنه قيل منذ دهر وليس منذ دقائق: «لقد انتهت المفاوضات وبالتالي الاجتماع، عزيزتي الدونا إستريللا... هل هكذا تطردين كل شركائك في العمل؟ بعناق؟».

- أنا...

فتحت فمها لتجيب ثم بدا أنها فقدت السيطرة على صوتها فعادت وأقفلته وهي تغص بريقها. وأخيراً قالت بسرعة: «أنا لم أعانقك. ما أتذكره هو أنك أنت من عانقني، كما أننا لسنا شريكين بأي شكل أو أي شيء».

فقال بابتسامة ساخرة: «طبعاً لا. ولكن، كما أتذكر، لم تمانعي على الإطلاق، بل على العكس تماماً».

واشتبكت نظراته بنظراتها فيما اتسعت ابتسامته للذكرى، ثم عاد يكرر قولها: «لن أتزوجك حتى لو كانت حياتي ومستقبل الجنس

البشري متوقفان على ذلك».

وأخذ ينظر إلى ارتباكها الحاد وهي تتذكر كلماتها، ثم تابع: «ربما لن تتزوجيني يا «دونا» مدرانو، لكنني أراهن على أني، لو طلبت منك أن تأتي معي إلى سريري، لأسرعت إليه كالرصاصة».

تنفست بعنف ثم فتحت فمها محتجة، لكنه قال بسرعة قبل أن تجد فرصة للكلام: «ولكن بقدر ما أحب أن أستفيد مما تعرضينه عليَّ، إلا أنني سأرفض ذلك. فعناقك إذا علمني شيئاً فهو أنني كنت على صواب منذ البداية.. أي تعامل معك سيكلفني الكثير، وبصراحة، لا أظنك تستحقين ذلك».

تمنى أن تقنع بهذا، وهو يستدير مبتعداً، من دون أن ينظر خلفه... لن يمنحها فرصة مناقشته، لأنه لا يظن أنه قادر على أن يقنعها إن تكلم مرة أخرى، أو حتى أن يقنع نفسه.

لو نطقت بكلمة تشجيع واحدة... لو نادته تطلب منه العودة، لفعل ذلك. إنه يريدها إلى حد أن السير أصبح عذاباً بعد أن تملكت جسده الإثارة والحرارة.

إذا توقف عن السير، فسيلتفت، وإذا التفت فسيراها.. وهي ستراه. لا يمكن ألّا تعي حالته الجسدية، إلا إذا كانت عمياء أو غبية، وهو يعلم أنها ليست كذلك.

وهكذا، استمر في سيره، إنما ببطء ومن دون عجلة، حتى أنه لم يزعج نفسه بإغلاق الباب. قاوم رغبته في صفق الباب خلفه لكي يتخلص من مراقبة «دونا» مدرانو له، بعينيها البنيتين الداكنتين، وهو يخرج. وفيما كان يسير في الممر الطويل شعر بنظراتها المحرقة تلسعه، وعندما أوشك أن يهبط السلالم سمعها أخيراً تناديه: «لن أوافق حتى لو كانت حياتي تقف على ذلك، يا «سنيور» داريو! هذا ما قلته وهذا ما

عنيته. وتغيير رأيي يلزمه أكثر بكثير من مجرد عناق».

- إذن فقد اتفقنا على شيء، على الأقل.

من تراها تخدع؟ تساءلت وهي ترى رامون يلوح بيده نحوها من دون اهتمام قبل أن يهبط السلم ويغيب عن النظر. لو نظر إلى الخلف لحظة، لأدرك أن كلماتها كانت كذباً، فعيناها كانتا تتبعانه، إذ لم تستطع سلخ نظراتها عنه.

كان على صواب تماماً... على صواب مذهل ومخيف وقاهر.

(لا، حتى لو كانت حياتي ومستقبل الجنس البشري يعتمدان على ذلك).

كررت بتعاسة هذه الكلمات العنيفة التي قذفته بها من دون تفكير في غمرة غضبها وهي تراه يسير مبتعداً. هزت رأسها بيأس لضعفها وغبائها.

ما من شيء أبعد عن الحقيقة!

كانت تريده، كما أدركت وهي ترتجف خوفاً وبهجة. إذا سمعت خطواته يصعد السلم، إذا ظهر في آخر الممر وفتح ذراعيه، فستطير إليهما، وستلقي بنفسها بين ذراعيه.

تباً لك يا رامون داريو!

خرجت هذه الكلمات بعنف، ولكن سواء أكان هذا الشعور غضباً، أم خسارة، أم مجرد مرارة، إلاّ أنّ النكد الصبياني عاودها فمدت يدها تصفق الباب بأقصى قوتها، ليتردد صدى ذلك في أنحاء الغرفة.

تباً تباً تباً تباً لك!

ولكن ما الذي يحدث لها؟ كيف يمكن أن تحدث الأمور بهذه السرعة؟

ظنت أنها كانت تحب كارلوس بيريا... لكنها أصرّت على الانتظار... وهي لا تحب هذا الرجل... كيف يمكن أن تفعل هذا وهي لم تعرفه إلا منذ... نظرة سريعة إلى ساعة الجدار أنبأتها أنه لم يدخل الغرفة إلا منذ نصف ساعة....

لكن لا معنى للوقت مع رامون داريو. تجاوبت منذ رأته، وكأنها رأت مصيرها... وكأن جسدها عرف سيده، نصفه الآخر، الشخص الذي خُلقت لأجله.

إنها تخدع نفسها إذا ظنت أنها ستتمكن من مقاومة رامون. لا أمل لديها في أن تتمكن من الامتناع عنه، مهما حاولت. من الأفضل أن تعترف بذلك لنفسها وتواجه الحقيقة.

الأمر الوحيد الحسن في هذا الوضع هو افتراقهما والطريقة التي سار بها رامون إلى الباب مبتعداً عنها من دون ان يتكرّم عليها بنظرة. لن تكون هناك فرصة تجمعهما مرة أخرى، وإذا لم يتقابلا مرة أخرى أبداً، فلن يكون عليها أن تكافح إغراء الدخول في حرب تعلم أنها ستكون الخاسرة فيها.

إذا لم تر رامون مجدداً، فستكون آمنة، آمنة منه ومن نفسها.

كان من المفروض أن تسعدها هذه الفكرة.

لكن تأثيرها كان معاكساً في الواقع.

٣ . زيارة واعتذار

ركل رامون الباب يغلقه خلفه، وألقى بمفاتيحه على الطاولة القريبة، ثم مسح وجهه متعباً، قبل أن يتأمل شقته الساكنة الخالية عابساً.

شيء ما حدث في الأسبوعين الماضيين. لم يكن واثقاً تماماً من طبيعته ولم يعلم كيف يفسر هذه المشاعر الجديدة التي ابتلى بها، كل ما يعلمه هو أن الأمور لم تعد كما كانت.

منذ أسبوعين، كانت حياته ملكه، خطط فيها لكل شيء، وكل ما فيها كما يريده بالضبط.

ما عدا شيئاً واحداً...

كان يريد شركة تلفزيون مدرانو وهو مصمم على ذلك. ولهذا السبب، بدا وكأن حياته انقلبت رأساً على عقب.

تخلل شعره بأصابعه وأخذ يمسّد رأسه الذي يبدو، هذه الأيام، متوتراً مشدوداً.

لم تكن شركة التلفزيون هي السبب في عدم انتظام الأمور، بل معرفته بإستريللا مدرانو، فبسببها لم تعد حياته تبدو وكأنها ملكه.

وفي طريقه إلى المطبخ ليحضّر فنجان قهوة، لاحظ أن ضوء المجيب الآلي يومض بعنف ليعلن أن ثمة اتصالات تنتظر.

ولم يكن هذا مدهشاً، فقد انشغل في الأسبوعين الماضيين بأمور كثيرة حتى أنه لم يعد إلى شقته. أما الأيام التي لم يكن يعمل فيها فكان

يمضيها في بيت أبيه، أو يزور أخاه جواكين ليطمئن إلى شفائه من الحادث الذي تعرض له مؤخراً. توقف ليضغط على زر فتح الجهاز ثم تابع طريقه إلى المطبخ، بينما ابتدأت الرسائل تتوالى: «رامون، كيف حالك يا رجل؟».

أشرق وجه رامون لسماعه صوت أخيه الذي أصبح، مؤخراً، أباً مسلوب العقل بشكل ميؤوس منه. لم يكن أليكس يحب شيئاً أكثر من أن يروي لأفراد الأسرة حكايات طفلته الصغيرة، الرائعة.

كان يحضرّ القهوة عندما انتقل الجهاز إلى الرسالة التالية: «السنيور داريو؟».

كان صوت أنثى، صوتاً منخفضاً متردداً قليلاً، وسقطت الملعقة من يد رامون بينما رفع رأسه بحدة، وأداره إلى المطبخ ليسمع جيداً.

آخر مرة سمع فيها هذا الصوت، كان يصيح به في الممشى الأنيق في قصر مدرانو: «لن أتزوجك ولو كانت حياتي ومستقبل الجنس البشري معتمدان على ذلك». ترددت هذه الكلمات في رأسه، واضحة وكأنه يسمعها الآن: «وتغيير رأيي يلزمه أكثر بكثير من مجرد عناق».

اللعنة. فاته ما قالت، فقد كانت أفكاره مشغولة بالماضي. ولكن ما الذي جعل إستريللا مدرانو تتصل به هنا، وهي التي أقسمت على ألاّ تراه مرة أخرى؟

الرسالة الثالثة كانت عن العمل لكنها غير هامة. وما إن أوشك أن يعيد الإصغاء إلى رسالة إستريللا مدرانو حتى ابتدأت الرسالة الرابعة.

- سنيور داريو؟ أنا أحاول الاتصال بك، لقد اتصلت مرة أخرى!

ومرة أخرى وقف رامون جامداً وفنجانه في منتصف الطريق إلى فمه، وذهنه مشغول بمحاولة فهم ما يجري. لماذا تحاول هذه المرأة التي أخبرته أنه العاشر في صف العرسان، وأنها لا تريده، أن تتصل به

الآن؟

الرسالة لم تعطه الجواب، بل قالت إنها كانت تحاول الاتصال به، وأنها اتصلت بالشقة من قبل وستحاول مرة أخرى.

لاحظ أنها لم تترك رقماً، كما لم تقترح أن يتصل بها. حاول مرة أخرى أن يضغط على زر إعادة الرسالة عندما رن جرس الباب فحوّل انتباهه إليه. قال وهو يفتحه: «كنت على وشك أن أجيب على اتصالك، لِمَ عدم الصبر هذا، فقد كنت عائداً...».

تلاشت كلماته وهو يرى الواقف بالعتبة.

لم يكن الزائر أحد إخوته، أو سكرتيرته التي أبلغته أن لديها أوراقاً بحاجة إلى توقيع أو حتى أخته مرسيدس التي بدا واضحاً أن شيئاً ما يشغل ذهنها... لعل الأمر يتعلق برجل...

لم يكن الطارق شخصاً توقعه، بل كان آخر شخص توقعه.

- أنت!

وقفت إستريللا مدرانو على فسحة السلم، وقد احنت كتفيها بشكل دفاعي، بينما دست يديها في جيبي سترتها التي ترتديها فوق بنطلون جينز وقميص مقفل.

- لماذا جئت؟

- أظنك تعلم.

- وكيف أعلم بحق الجحيم؟

أدرك أن لهجته حادة. وإذا لم يدرك ذلك من تلقاء نفسه، فإن رجوعها خطوة إلى الخلف، والتوتر في كتفيها أنبآه بذلك. لكنه لم يستطع السيطرة على لسانه، أو التصرف بشكل مهذب ليرضيها، فقد أمضى يوماً شاقاً، ولم يكن في مزاج يسمح له بالتصرف بشكل لائق مع

امرأة أوضحت له أنها لا تريد أن تراه مرة أخرى أبداً.

- قلت لتوّك إنك كنت عائداً إليّ.

- قلت هذا قبل أن أعلم أن الزائر هو أنت، ظننتك شخصاً آخر، كنت أتوقع سكرتيرتي.

- فهمت، إذا ما حضرت في وقت غير مناسب، فيمكنني الذهاب...

- لا.

كيف حدث هذا بحق الجحيم؟ لقد فتح فمه ليقول: نعم. نعم.. نعم، إنه أرادها أن تذهب. نعم، كان يعني ما يقول حين قال إنه لم يعد يريد التعامل معها.

لكن، وبشكل ما، هزم عقله الباطن وعيه فنطق بعكس ما أراد بالضبط.

- لا... أدخلي.

أدرك أنّ صوته كشف الكثير... كشف الشعور غير المستقر الذي تملكه في اللحظات الأولى التي رأى فيها هذه المرأة مرة أخرى. مجرد رؤيتها أعاد إليه كل ما احتمله من أرق منذ غادر قصر مدرانو دون أن ينظر خلفه. لقد سار مبتعداً لكنه لم يستطع أن يتركها خلفه، خصوصاً في أفكاره. لقد لازمت تفكيره نهاراً وأزعجت نومه ليلاً. صورة وجهها الرائع الجمال، وقوامها الرشيق وشعرها الطويل الأسود، شغلت أحلامه.

قال مرة أخرى مدركاً أنه لم يكن يحدثها بل يحدث نفسه: «لا، هذا ليس وقتاً غير مناسب، على الإطلاق».

كان شذا عطرها الممتزج برائحة جسدها الخفيفة، يدمّره ويجعله

يغص بريقه ويشتت عقله. وتمنى لو تفصح عن سبب حضورها ثم تخرج بسرعة.

وأدرك أنّ تلك الليالي القلقة التي كان يبتلّ فيها بالعرق ستعود.

سألها متذكراً فجأة حسن سلوكه: «أتريدين شراباً؟».

- نعم، شكراً.

بدت شاكرة للغاية وكأنه ألقى إليها بحبل نجاة، ما جعله يتساءل عن سبب وجودها هنا، وعن الأمر الهام الذي جعلها تتغلب على كراهيتها له وتأتي إليه؟ وكم من الأحاديث المهذبة عليهما أن يتبادلاها قبل أن تفصح عما تريد؟

- هل تحبين عصير البرتقال؟

- تماماً.

- سأحضر لك كأساً.

تملكه الذعر عندما لحقت به إلى المطبخ بينما هو بحاجة ماسة إلى لحظات يتمالك فيها نفسه.

كان يشعر بما يشبه وخز الإبر، ووجودها عنده سبب له ما يشبه الحريق في أعصابه، قميصها القطني الضيق المقفل أبرز خصرها النحيف. وإذا بدت مغرية في التنورة السوداء الضيقة، فهي تسبب له الآن العذاب في بنطلون الجينز. كان شعرها الأسود مرفوعاً ما أبرز ملامحها بوضوح.

كلما ازدادت ملابسها بساطة وعفوية كلما زاد عذابه لارتباط البساطة بابتعادهما جسدياً عن بعضهما البعض.

وعندما بدا واضحاً أنها لن تبدأ بالكلام، سألها: «والآن، ما هو سبب هذه الزيارة؟ لا بدّ أن هناك دافعاً لذلك، فأنت لست هنا لمجرد

التعرف إلى طراز حياة العامة من الناس».

- آه، لا. هذا ليس السبب.

- هل لديك مانع من أن تخبريني إذن؟

تساءلت إستريللا كيف تجيبه عن ذلك؟ فالفكرة كلها حيّرتها، لأنها مستحيلة. لكنها عندما فكرت فيها رأتها صواباً. ومع ذلك، حالما انفتح الباب وواجهت رامون مرة أخرى تبدّد كل أثر لثقتها بنفسها وكأن زلزالاً حدث وفتح هوة تحت قدميها.

كانت قد نسيت كم هو طويل ومهيب، كما أن تأثير وسامته السمراء المدمرة كان قوياً ما جعل حواسها تدور. قميصه الرمادي مع بنطلون بذلته السوداء، زادا روعة قامته الصلبة القوية العضلات.

كانت ربطة عنقه منحلّة والزر الوحيد في ياقة القميص مفتوح يكشف عن عنق طويل صبغته الشمس بلون ذهبي.

مجرد رؤيتها له جعلت فمها يجف. ورغم أنها كانت تعلم أن السبب يعود لأعصابها جزئياً، إلا أنها أدركت أن ثمة أسباب أخرى.

تسارع النبض في صدغيها وأدركت أن هذا غير ناشئ عن التوجس فقط.

عاد رامون يسألها ساخراً: «حسناً، لماذا جئت إلى هنا؟».

- أنا... أنا بحاجة للتحدث إليك.

- عن ماذا؟ عرض آخر للزواج؟

خنقتها غصة حادة وحاولت أن تتكلم لكن صوتها اختنق.

- ما هذا، يا «دونا» مدرانو؟ هل أرسلك أبوك لكي تجعليني أغير رأيي؟ أم أنك خجلت من أن تخبريه أن رجلاً آخر رفضك فأرسلك لكي يعرف جوابي؟

أجفلت لجوابه الساخر وحاولت أن تنتصب في جلستها، مرغمة نفسها على مواجهة نظراته الجارحة.

- أبي لا يعلم أنني هنا.

أدهشه هذا، وبدا ذلك على وجهه إذ اتسعت عيناه وارتدّ رأسه قليلاً إلى الخلف، لكنه سرعان ما استعاد سيطرته على نفسه وبدت في عينيه نظرة تقييم هادئة حذرة: «لا يعلم؟ أين يظنك إذن؟».

- مع أصدقاء. أخبرته أنني ذاهبة إلى المدينة لزيارة صديقة قديمة من أيام الدراسة.

- ولم تخبريه أن صديقة الدراسة القديمة هي أنا في الحقيقة؟

- نعم...

هذا كل ما استطاعت قوله، فقد خانها صوتها مرة أخرى. ورأت من نظراته أنه كان مشككاً وفضولياً معاً، فحدثت نفسها أن بإمكانها أن تركّز على الفضول. إذا أثارت فضوله، فلن يطردها قبل أن يشبعه. عندما قررت أن تأتي إلى هنا، لم تكن واثقة حتى من أنه سيسمح لها بالدخول... تصورت أنه سيطردها من دون كلمة... وسيصفق الباب في وجهها حتى قبل أن تشرح له الأمر.

وتمتم رامون بنعومة زائفة: «هذا مثير، لا يكفي أنك هبطت عليّ فجأة من السماء بعد أن أقسمت على ألاّ تريني مرة أخرى، بل كذبت على (بابا) لتفعلي ذلك، وهذا يجعلني أتساءل عن أهمية هذه الزيارة بالنسبة إليك».

إذا لم تتكلم الآن فلن تتكلم أبداً، وابتلعت مزيداً من العصير آملة أن يشجعها هذا. لم تكن قد قررت بعد أن تمضي قدماً في هذا الأمر. الفكرة التي توصّلت إليها في منتصف الليل، في ظلمة غرفتها في القصر، بدت لها الحلّ الوحيد. لكن هنا، في ضوء النهار، وفي شقة

رامون الأنيقة، ومع هذا الرجل الذي يشرف عليها وهو يقف بجانب المدفأة الكبيرة، هجرتها قناعاتها كلها. الجرأة والوقاحة اللتان أحضرتاها إلى هنا تخلتا عنها بسرعة، وكأن هناك ثقوباً في أصابع قدميها تتسرب منها قوتها.

لكنها تذكرت كيف خططت لعرض الأمر. إذا لم تنجح الخطة أو إذا تغيّر مزاجه، فبإمكانها أن تغادر قبل أن تفصح عن معظم فكرتها. إذا تقدمت تدريجياً، فيمكنها أن تختبر الوضع.

رأيها هذا أعاد إليها شيئاً من شجاعتها، وأصبح صوتها قوياً بشكل مذهل عندما أجابته: «جئت لأقدم لك... اعتذاراً».

أدهشه هذا، لأنه آخر ما توقعه، وجمدت يده بالكأس في منتصف الطريق إلى فمه وأخذ يحدق إليها بإمعان وقد اشتبكت عيناه الباردتان الرماديتان بعينيها البنيتين العميقتين غير الواثقتين... ثم هز رأسه فجأة وقال بصوت خشن: «لا أظنني سمعت جيداً. أظنك قلت...».

- قلت إنني جئت لأعتذر.

بدا واضحاً أنه لم يصدقها. ونظر إليها مشككاً، وسألها: «الاعتذار عن ماذا؟».

فارقها بعض تحكمها بنفسها مرة أخرى. وفكرت في أخذ جرعة أخرى من العصير، لكن خوفها من أن تختنق بها جعلها تعيد الكأس إلى مكانها: «عن... عن سلوك أبي، وسلوكي ذلك اليوم عندما جئت إلى القصر. ما كان لنا أبداً أن... أنا أشعر بضيق حقيقي لذلك».

نظرت إليه بعينيها الواسعتين الداكنتين تتأمل ملامحه الخشنة آملة أن ترى التفهم على وجهه، لكن الوجه القوي لم يلن، وبقي صلباً كالصخر، فلم تستطع أن ترى حتى ومضة من التجاوب في عينيه الفضيتين.

- أنا... أنا آسفة.

تمنت لو يتكلم... لو يقول شيئاً... أي شيء. لكنه، وبدلاً من ذلك، أنهى بقية كأسه وانتقل إلى أريكة ضخمة تشبه الكرسي حيث جلست هي بعدم ارتياح.

بقيت عيناه تنظران إليها بحدة وتقييم، ولم تستطع احتمال هذا الصمت أكثر فأردفت: «رامون...».

لكنه قاطعها من دون اعتذار، آمراً بصوت خشن: «قولي هذا مرة أخرى... ما قلته لتوّك، قوليه مرة أخرى».

ماذا يريد؟ برهاناً على صدقها؟ أم أنه يريد إذلالها عبر جعلها تكرر مرة بعد مرة السبب المريك الذي جعلها تحضر؟ وقالت: «إنني أريد أن أعتذر؟ أنا أعتذر حقاً. كان أبي مخطئاً في طلبه منك...».

- فعل أكثر من مجرد الطلب.

- أعلم أنه جعل من زواجك بي شرطاً ليبعك شركته. ما كان له أن يفعل هذا قط. وأنا..

كادت أعصابها تخونها وكان عليها أن تتوقف، ثم أخذت نفساً عميقاً مهدئاً قبل أن تجد القوة لتتابع: «ما كان لي أن أتصرف بذلك الشكل».

بقيت عيناه الباردتان تراقبانها وقد ضاقتا قليلاً وتسمرتا على وجهها تلاحظان كل تغير في التعبير وكل شعور يرتسم على ملامحها. وأخيراً، قال: «يمكنني أن أصدق تقريباً أنك تعنين ما تقولينه».

- وأنا أعنيه فعلاً.

أرادته أن يصدقها. كانت بحاجة إلى أن يصدق ذلك، فإذا لم يفعل، لانهارت فكرتها منذ البداية.

مالت إلى الأمام في كرسيها، وعيناها مسمّرتان على عينيه: «أنا أعنيه، وآمل أن تصدقني».

سكتت راجية أن يقول شيئاً. لكنه لم يفعل، بل وقف وعيناه تشتبكان بعينيها، وراقبها منتظراً. وعندما أخذ صمته يضغط على أعصابها، راحت تتململ في مقعدها بضيق.

- ما كان يجدر بأبي أن يفرض عليك تلك الشروط مهما كانت دوافعه. وكان عليّ أن آتي إليك وأبلغك بأنني أعرف... حسناً، بأنني تكهنت بأنه سيسعى إلى استخدام هذه الحيلة مرة أخرى. كان عليّ أن أبلغك...

كانت تثرثر. أدركت ذلك لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها، فقد أثّر عليها صمت رامون وشعرت أنّ عليها أن تفعل شيئاً... أي شيء لتملأه.

- كان عليّ أن أفعل شيئاً منذ البداية.

- لكنك لم تفعلي.

- لا، لم أفعل.

- هل لك أن تخبريني لماذا؟

هل تريد أن تخبره؟ هل هي مستعدة لأن تخبره؟ والأهم من ذلك، ما مقدار ما تريد أن تخبره به؟

لم تستطع إستريللا أن تجيب عن هذه الأسئلة، ولهذا لم يكن لديها فكرة كيف ستجيبه.

- أنا...

حاولت، ولكن تفكيرها تعطّل وأصبح عقلها صفحة بيضاء.

وشعرت بالاحمرار يصعد إلى وجنتيها حين قال: «أخبريني، هل ما

ستحدثيني به فظيع إلى حد أنك تجدين صعوبة في أن تعترفي به؟».

اعترفت إستريللا في سرّها بأن ذلك لن يكون سهلاً فعلاً. فمن الصعب الاعتراف لهذا الرجل بأنها لم تستطع طرده من ذهنها منذ عرفته، وأنه يراود أحلامها كل ليلة، وصورته لا تبارح خيالها كل يوم، رغم محاولتها للتخلص منها، وللتفكير في أيّ شيء ما عداه.

لكن هذا أكثر مما تجرؤ على الاعتراف به، خصوصاً أن العينين الباردتين تقيّمان كل ما تنطق به وكل ما تفعله.

بارتباك ميؤوس منه، وضعت كأسها على المنضدة وركّزت نظراتها عليها غير قادرة على مواجهة نظراته.

- حسنا، «دونا» مدرانو؟

سألها وقد تعمّد استفزازها حين ناداها بلقب «دونا» ومعناه «الأميرة» بالإسبانية، ما أثار طبعها وجعلها تشعر بالتمرد، ودفعها إلى عدم الحذر في الكلام: «أنت تعلم جيداً سبب كل هذا! كل شخص يعرفه! وهذا ما جعل أبي يمارس هذه الألاعيب... ويحاول أن يرشو الرجال، أو يرغمهم على الزواج بي. كنت تعلم ذلك طوال الوقت، وأنت الشخص الذي أتى على ذكر كارلوس حينذاك».

(أنا لست من اللهفة بحيث أرغب في ما نبذه كارلوس بيريا).

هذا ما قاله حينذاك فجرحتها كلماته كثيراً. والآن، وهي تنظر إلى ملامحه الباردة، رأت الازدراء والاشمئزاز القاسي نفسيهما.

- نحن نتحدث عن كارلوس بيريا ؟ عجباً، و لِمَ كل هذا؟ هل تريدين أن تدعي بأن كارلوس بيريا لا وجود له؟ وأن قصة علاقتكما مجرد شائعة؟

كم تتمنى لو تستطيع ذلك! وتمتمت بتعاسة: «لا. لن أدعي ذلك. لا أستطيع... فهذا لن يكون صحيحاً. كارلوس... كان لكارلوس

وجود».

- والآن، هل لك أن تفسري لي لماذا اخترت رجلاً متزوجاً؟ وكيف أغريته حتى ترك زوجته و... هل كانوا ثلاثة أولاد؟... تركهم من أجلك؟

فتمتمت بلهجة دفاعية: «بل كانا ولدين... ولدين فقط».

- أتظنين أن ذلك يشكل فرقاً؟

- لا أظن أن هناك ما يشكّل فرقاً.

ومن المؤكد أن ما من شيء أراح ضميرها، كما يبدو أن ما من شيء يمكن أن يحسّن سمعتها بعد الآن.

- لا.

وافقها رامون الرأي ساخراً وهو يقف فجأة ويبتعد عن مقعده وكأنه لم يعد يطيق الجلوس بقربها ثم اضاف: «لا أظن أن أياً من ذلك يهمك... حقيقة أن لديه زوجة وطفلين في البيت، وأنه حطم قلوبهم جميعاً بالركض خلفك... هذا لم يكن مهماً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ لقد حصلت على ما تريدين من دون أن يهمك كم كلّف هذا كل واحد منهم».

في الماضي ظنت أن من المستحيل أن يتمزّق قلبها أكثر مما تمزّق، وأن تعذبها ذكرى غلطتها المرة بطريقة أكثر إيلاماً. لكنها لم تشعر قط بأنها بهذه الضعة والتفاهة، وأنها رخيصة للغاية، كما شعرت الآن. حتى عندما اكتشفت الحقيقة عن كارلوس لم تشعر بهذا القدر من الحقارة كما تفعل الآن مع سماع الاحتقار العميق في صوت رامون.

ولم تستطع التحمّل أكثر، فاندفعت واقفة بصعوبة وأرغمت نفسها على رفع رأسها عالياً، بينما عيناها تلمعان تمرداً: «لم أكن بهذا الشكل، يا سنيور داريو».

سرّها أن تستطيع السيطرة على صوتها وأن تمنعه من الارتجاف، رغم أن الجهد جعله يبدو حاداً وبارداً إلى حد مؤلم. لكن، هذا أهون الشرين، كما رأت والحزن يتملكها: «لم يكن الأمر بهذا الشكل على الإطلاق، لكنني لا أتوقع منك أن تصدقني. لقد تساءلت عما إذا كنت مختلفاً، ولكن يبدو أنني أنا مخطئة. طبعاً مخطئة! أنت لست مختلفاً... أنت كالآخرين... كأبي...!».

- يا لجهنم، كلا!

لقد أصابت منه وتراً حساساً، فبدا غاضباً للغاية والتهبت عيناه وتوترت شفتاه. لكنها انفجرت تقول: «يا لجهنم! نعم، فأنت مثله، ترى ما تريد أن تراه وتصدّق ما تريد أن تصدقه. أنت لا تريد أن تنظر أبعد من الأشياء لترى ما يمكن أن تكون الحقيقة».

- أتريدين أن تقولي...؟

- لا أريد أن أقول شيئاً، ما عدا تصبح على خير.

واستدارت بسرعة واختطفت حقيبة يدها وتشبثت بها بشدة حتى ابيضت سلاميات أصابعها. بشيء من السرعة والقوة ستصل إلى الباب. وعادت تقول وهي تصرف بأسنانها: «تصبح على خير، يا «سنيور» داريو. شكراً على الاستقبال، أتمنى لو أستطيع القول إنه كان جيداً. لكنني لا أريد أن أكذب».

ظنت أنه سيدعها تذهب. وحين رأته ينظر إليها بصمت وهي تعبر الغرفة اقتنعت بذلك، وبأنها نسفت حظها، وأحرقت خلفها الجسور، وأن أي أمل لها في أن تتحقق خطتها تلاشى إلى الأبد. لم يعد لديها أمل على الإطلاق في أن يساعدها.

لم تكن هذه الفكرة هي التي جعلت عينيها تغرورقان بالدموع، بل علمها بأنها أخفقت مرة أخرى في أن تقنع شخصاً بأنها ليست كما

يظنها. ورغم أنه غريب تماماً، إلا أنها كرهت أن ترى رامون يدينها كالآخرين من دون أن يسمع قصتها.

عندما وصلت إلى شقته هذا المساء، لم يكن أملها كبيراً في أن يقتنع لكنها بقيت على تفاؤلها، وأملت في أن يصغي إليها.

بدا وكأن المسافة إلى الباب لن تنتهي. شعرت وكأنها تغوص في الوحل، فساقاها كانتا من الوهن بحيث لم تحملاها، والدموع المنهمرة من عينيها جعلتها تكاد لا ترى أمامها. لكنها لن تنظر خلفها، ولن تتردد ولن تظهر أي علامة ضعف.

- إستريللا.

جاء صوته عندما لم تتوقعه. كان في البداية رقيقاً ناعماً، لكن تركيزها على الخروج من البيت ومن تعاستها هذه، جعلها غير واثقة من أنها سمعت شيئاً، ثم تكلم مجدداً، فتأكدت من ذلك.

- لا تذهبي يا إستريللا.

إنها المرة الأولى التي يناديها فيها باسمها ما جعلها تبطئ في سيرها ثم تجمد مكانها. إنها المرة الأولى على الإطلاق... فكان ذلك أشبه بطعنة خنجر إذ أدركت فجأة أنها لم تسمع اسمها بهذه الرقة والجمال من قبل. وانقبض قلبها وهي تفكر في أنها المرة الوحيدة التي قد تسمعه فيها ينطق به.

لكنها ما زالت عاجزة عن أن تحمل نفسها على الاستدارة ومواجهته. كانت خائفة للغاية مما قد تراه في عينيه، وما قد يقرأه في عينيها. إذا كان عليها أن تذهب، فلتذهب الآن.

وإذا ما ترددت، أو التفتت إلى الخلف، فقد لا تستطيع أبداً أن تجبر نفسها على أن تسير قدماً مرة أخرى.

٤ - شرط واحد

أدرك رامون ذاهلاً أنها المرة الأولى التي ينطق فيها باسمها. كما إنها المرة الأولى التي يعتبرها فيها ذات شخصية مستقلة فيناديها باسمها الخاص بدلاً من أن يفكر فيها بصفتها ابنة ألفريدو مدرانو، أو «الأميرة مدرانو» كما يناديها.

أو المرأة التي توقعوا منه أن يخطبها للزواج.

وكانت هذه صدمة حقاً!

أتراه حقاً لم ير في هذه المرأة إنساناً مستقلاً؟ لقد عانقها وحلم بها وتمناها. ولكن هل رآها حقاً، وحقيقة؟ وها هي الآن قد جمدت مكانها، لكنها تدير ظهرها له، فلا يرى منها سوى ساقيها الطويلتين وشعرها الحريري الفاحم المنسدل على كتفها، لم يستطع أن يرى وجهها.

لكن هل سبق له أن رأى وجهها؟ هل سبق له قط أن رآها؟؟

من هي إستريللا مدرانو؟ من هي هذه المرأة التي تلقى الأمر بأن يتزوجها... باستبداد وغطرسة جعلاه يقف يعاديها منذ البداية؟

وكرر بحزم أكبر: «لا تذهبي! لا تخرجي بهذا الشكل! ابقي!».

وببطء، بطء بالغ، دارت على عقبيهاووقفت تواجهه وقد لمعت عيناها بشكل مثير للشك، في أشعة شمس الغروب المتدفقة من النوافذ الكبيرة. بدا وجهها مختلفاً، بدا شاحباً وهزيلاً وبالغ الرقة.

أم لعل هذا شيء آخر لم يره من قبل؟

سألته برقة: «أبقى؟ ولماذا؟».

بدت حذرة كحيوان سقط في فخ وهي تنظر إليه بعينين واسعتين متوجستين وكأنها تخاف أن ينقضّ عليها فجأة.

- هل أكلت؟

هزت رأسها نفياً، غير واثقة من صوتها لتجيب.

- ولا أنا. ونحن الإثنين بحاجة إلى ما يسدّ رمقنا.

وجاء جوابها ايماءة من رأسها.

- هذا حسن.

في طريقه إلى المطبخ كان عليه أن يمرّ بقربها فأخذت تنظر إليه بصمت وقد بدا الحذر والشك في وجهها.

لم يعجبه ما جعلته يشعر به. لم يعرف قط امرأة تصرفت معه بهذه الطريقة. وقد عرف نساءً كثيرات مع مرور السنين، نساءً كان الحديث معهن سهلاً، وجذبهن إليه سهلاً. لكن هذه المرأة حذرة كالقطة الوحشية. منذ لحظة، كانت متكورة في الكرسي ناعمة وشبه مرتاحة، وفي اللحظة التالية راحت تفح وتخمش كنمر صغير، بعينين بنيتين تنفثان اللهب ورأس مزهو ينتصب عالياً.

- لن أؤذيك.

وجد نفسه مرغماً على أن يقول لها هذا، علّه يريحها. فقالت بصوت خافت: «لا... لا أظنك تنوي هذا».

- وماذا يعني هذا؟

كان يواجهها مباشرة، وتمكّن من أن يرى اكفهرار عينيها الجميلتين وتوتر عضلات وجهها.

وعندما لم تجب، قال: «إستريللا...».

فقالت بعنف رغم أنه رأى ارتجافاً خفيفاً في جسدها: «ذلك يعني... يعني أنك كالآخرين أحياناً، لا ترى أبعد من أنفك».

- الآخرين؟ أتعنين الرجال الآخرين الذين أراد أبوك أن يتزوجوك؟ الرجال الآخرين الذين أراد أن يشتريهم؟.

وشعر بالغثيان وهو يتصورهم جميعاً، ويتصور نفسه مجرد رقم في القائمة.

- تباً لك يا إستريللا، أنا لست كذلك!

- لا؟ لا؟ هل أنت واثق؟

وشبكت ذراعيها على صدرها وهي تخبط الأرض بقدمها.

- طبعاً. كلهم طلبوك للزواج لأنهم أرادوا شيئاً من أبيك.

- ما الفرق بينك وبينهم إذن؟ وبماذا تختلف عنهم؟ أخبرني ماذا كنت تفعل في تلك الغرفة... ولماذا أرسلني أبي لأتحدث إليك؟ ما الذي كنت تفعله؟

- ما كنت لأفعل أبداً ما طلبه مني أبوك!

- أحقاً... أحقاً ما كنت لتفعل ذلك؟

- ألم تسمعي ما قلته؟ لا، لم أكن لأفعل ذلك. تريدين أن تعرفي الفرق بيننا... بيني وبين أولئك الرجال الذين اشتراهم أبوك؟ الفرق هو أنه استطاع أن يشتريهم! وقد طلبوا يدك للزواج بينما أنا لم أفعل.

- السبب...؟

- لا.

ورفع يده بحركة خشنة يوقف ذلك الحديث، لكنه عاد فتابع: «ليس لأنني لم أجد فرصة لذلك، أو لأنك درت حولي كقطة غاضبة، أو لأننا

تشاجرنا فغيرت رأيي، بل لم أطلب يدك لأنني لم أشأ ذلك!».

ما كان ليفعل ما يريده الفريدو مدرانو، بعد تلك الإهانات التي قذفه بها الرجل العجوز والتي ما زالت تتردد في ذهنه.

كان مدرانو قد قال له: «شركتي ليست لأمثالك فالأرض التي بنيت عليها محطة التلفزيون ملك لآل مدرانو منذ سنوات طويلة، ولن أبيعها لشخص مجهول برز فجأة. شخص ليس له الحق حتى في حمل الإسم الذي يحمله، وإن تمكّن من كسب مليونه الأول».

في الواقع، كان رامون قد استدار وخرج، عندما عاد الثعبان العجوز وقدّم إليه اقتراحاً آخر... وهو أن يتزوج إستريللا فيفوز بالتلفزيون بهذه الطريقة.

وقال لها: «لم أكن لأطلب منك الزواج، حتى بعد أن عرض عليّ أبوك الشركة بنصف الثمن الذي طلبه، إذا ما أخذتك معها».

إذا كان الذهول قد بدا عليها من قبل فالدوار هو حتماً ما يظهر عليها الآن. إذ شحب وجهها كلياً ولم يبق فيه لون باستثناء عينيها وفمها الوردي. أثناء كلامه، كان قد اقترب منها إلى حدّ رأى معه الفتحة ما بين شفتيها وهي تعضهما. وللحظة، تملّكته رغبة في أن يمرّ بإصبعه على فمها، لكي يسوّي ما ألحقه به العض من ضرر، لكنه يعلم أنها لن تستطيع احتمال ذلك. ربما، إذا فعل هذا، ستستدير وتهرب منه قبل تطرف عينه.

- لكنني أعلم مدى رغبتك في الحصول على محطة التلفزيون.

- نعم، نعم. أنا أريدها. حينذاك كنت أفضّلها على أيّ شيء آخر في العالم.

وسكت لحظة يتذكر فيها كم كانت تلك الصفقة تعني له.

- ما من شيء آخر يبعث في نفسك الرضا ذاته؟

- ما من شيء آخر يماثلها. إنني أكره فكرة خسارتها... وما زلت أرغب فيها.

- لماذا؟

فتنهد وهو يدسّ يديه في شعره: «حسناً. إنها قصة طويلة».

- لدي الليل بطوله.

بدت حريصة على سماع أسبابه. والغريب أنه شعر بأن بإمكانه أن يخبرها، أن يفسرّ لها مشاعره، وشيئاً من تاريخ أسرته المعقد.

- أتريدين حقاً أن تسمعي القصة؟ في هذه الحالة، فلنعد إلى الجلوس.

تبعته إلى المدفأة وجلسا حيث كانا من قبل، قبل أن يبدأ الكلام: «لكي تفهمي القصة، عليك أن تعلمي شيئاً عن أسرتي».

- أعلم أن أمك انكليزية وأباك..

- إذا كنت تعنين روبين داريو فهو ليس أبي. ليس أبي الطبيعي.

بدت عليها الدهشة: «إذن، من...».

- جوان ألكولار.

- من شركة «ألكولار كوربوريشن؟»

- نعم.

وأخذ يحدق إلى الأرض: «قامت بينه وبين أمي علاقة، وكنت أنا النتيجة. لكن أمي كانت متزوجة حينذاك من... من روبين، فجعلها تعده بألاّ تخبر أحداً».

- وهكذا نشأت وأنت تعتقد أن روبين داريو أبوك.

فأومأ ببطء: «وقد سجلّني ابناً له، لكن هذا لم يكن ممكناً لأن

روبين لا ينجب».

- ألم تخبرك أمك قط؟

- لم يكن لديها فرصة فقد ماتت وأنا صغير، لكنها تركت لي رسالة لأقرأها عندما أبلغ الخامسة والعشرين، فعرفت الأمر بهذه الطريقة.

- بما شعرت حينذاك؟

- بما تظنين أني شعرت؟ بما كنت لتشعري لو علمت فجأة بأن (أباك) ليس، في الحقيقة، أباك؟

أخذت إستريللا تفكر في ذلك ثم هزت رأسها. بدت ذاهلة تماماً، لكن شعورها لا يمكن أن يماثل شعوره عندما عرف الحقيقة.

قالت: «كنت لأشعر بالضياع».

- هذا بالضبط ما شعرت أنا به. لم أعرف إلى أين أنتمي ومن أكون، ومن هي أسرتي. أنا وروبين لم ننسجم قط. لم نكن متشابهين أبداً لا بل كنا مختلفين تماماً. أردت أن أعمل في الصحافة بينما أرادني هو أن أتخذ عملاً معقولاً، كأن أصبح محاسباً مثله. تشاجرنا لهذا السبب إلى ما لا نهاية. وقد فهمت ميولي بشكل أفضل عندما عرفت أصولي. عندما أدركت أن أبي، في الحقيقة، هو الدون جوان الكولار. ولعل أباك كان ليسلمني شركته الغالية لو علم أنني ابن أسرة كبيرة من أسر «كاتالان»، وأن أبي ذو اسم ولقب ربما أعرق من اسمه ولقبه هو، مدرانو، وأنه شخص كوّن ثروة من الصحافة.

- هل هذا هو سبب رغبتك في الحصول على الشركة؟ لكي تكون جزءاً من إمبراطورية الكولار؟

هز رامون رأسه نافياً بشدة: «لا، أبداً. أردتها لأحظى بشيء خاص بي لا يكون جزءاً من ثروة ألكولار بل من عرق جبيني. عندما عثرت على أبي الحقيقي، رحّب بي في أسرته، وأظنه ابتهج عندما علم أن لديه

ابناً يعمل في المجال الذي اختاره هو. لم يكن ابنه جواكين يهتم بالصحافة فذهب للإقامة في الريف حيث يملك كروم عنب يعتني بها ويصدّر انتاجها. أما أليكس فكان له دور آخر في الشركة».

سألته إستريللا بفضول: «أليكس؟».

فأجاب: «أليكس هو أخ آخر لي من أم أخرى. سبق وأنذرتك بأن هناك تعقيدات».

هزت رأسها وهي تتناول كأسها. كان الأمر معقداً حقاً وهذا ما أذهلها. لم يكن والد رامون مخلصاً لزوجته فخانها مع امرأتين أخريين، وأنجب منهما، ومع ذلك لا تزال سمعته جيدة. أما هي فتورّطت، ببراءة وغباء وبصيرة عمياء، مع رجل متزوج وكانت النتيجة أنها دُمغت بصفة (الفاسقة) منذ ذلك الحين.

كانت هذه إسبانيا. ولكن إسبانيا هي بلد الرجال. هذا كارلوس مثلاً، لقد تفهّم الناس هنا سلوكه... إنه رجل سلبت عقله فتاة صغيرة غير مسؤولة، وقد عفا الكل عنه قبل أن تعود من المدرسة الداخلية، المدرسة الخاصة التي اعتقد أبوها أنها ستجعل من ابنته سيدة محترمة. ثم إذا بكارلوس يموت بشكل مأساوي.

- إذن، أردت شركة التلفزيون لنفسك، وليس لتصبح جزءاً من شركة «الكولار كوربوريشن»؟

- بالضبط. كانت لتصبح الشيء الوحيد الذي أعرف أنه ملكي حقاً وليس ملك الكولار أو درايو. أبي كان سيعطيني جزءاً من «شركة الكولار» ولكن هذا ليس ما أريده. ما أريده هو أن أصبح نظيره في العمل، مثيل أبي الحقيقي في عالم أعماله. وإذا ما حصلت على شركة مدرانو، حصلت على شيء من (إسبانيا القديمة)، تراث «كاتالان» الذي يهتم به جوان الكولار أكثر مما يهتم به أبوك. وهكذا، لعل هذا سبب

رغبتي في الحصول على الشركة.

حدثت نفسها بأنه إذا لم تجعلها هذه المكاشفة تخبره بسبب قدومها إلى هنا، فلن يستطيع أي شيء آخر ذلك. أخذت نفساً عميقاً، وانتصبت في جلستها وكأنها تواجه فجأة أمراً عليها أن تقوم به. إذا أرادت أن تفعل ذلك، فهذا هو الوقت المناسب: «ماذا لو أخبرتك أنك لن تخسر الشركة؟».

ها قد قالتها، وشعرت بالخوف يتملكها فارتعشت رغم أشعة الشمس الغاربة. حالما رأت رد فعله وهو يعترف بمدى رغبته في الاتفاق مع أبيها، أدركت أنها لن تحصل على فرصة أخرى أبداً. لن تجد مقدّمة أخرى أفضل للكشف عن سبب قدومها إلى هنا.

لكنها لم تصدق أنه كان لديها الجرأة على النطق بتلك الكلمات بعد أن رأت حاجبي رامون ينعقدان قبل أن يقول ذاهلاً: «ماذا؟ ماذا تقولين؟».

- قلت ماذا ستفعل لو أخبرتك أن ثمة طريقة تجعلك لا تخسر ما تسعى إليه، وبذلك تصبح شركة التلفزيون لك؟

- وماذا عليّ أن أفعل بالضبط؟

- ماذا... تفعل؟

وتملكها الارتباك وجف فمها وغصت بريقها ولم تجد القوة لتجيبه.

- إستريللا؟ ماذا تقولين؟ هذا غير ممكن. أنت تعلمين ما حدث. فقد رمى أبوك الاتفاقية كلها في وجهي.

- أظن أنّ بإمكانك أن تقنعه بأن يغيّر رأيه.

- لابد أنك مجنونة، فقد قال إنه لن يبيع.

- إلا بشرط واحد.

من المدهش أن صوتها عاد إليها وبشكل أقوى وأوضح مما كان عليه. فبعد أن تجاوزت الصدمة لسماعها نفسها تقول تلك الكلمات، بدا لها فجأة أنّ الأفكار التي راودتها والخطط التي وضعتها والمناقشات التي دارت بينها وبين نفسها، قد انتعشت ومنحتها القوة التي تحتاجها، فبدت هادئة واثقة من نفسها. لكن ما لم تستطع التنبؤ به هو ردة فعل رامون، الذي قال: «إلا بشرط واحد. ولكن، يا إستريللا، أنت تعلمين ما هو ذلك الشرط، إنه يريدني أن...».

قال هذا بغضب مكبوت وسكت... فأكملت عنه: «أن تتزوجني. قال أبي إنه سيبيعك الشركة إذا ما وافقت على أن تتزوجني».

- أتريدين أن تقولي إنك موافقة على ذلك وإنك تشاركينه طلبه؟

أتراها قالت ذلك؟ هل هي حقاً مستعدة لذلك؟ ظنت ذلك حين جاءت إلى هنا، وهذا ما كان في ذهنها.

استجمعت قوتها كلها: «هذا ما أقوله بالضبط».

- أتريديني أن أتزوجك؟

- نعم، نعم، هذا ما أريد.

٥ - أريد حريتي

- رامون... أرجوك!

هذا كل ما استطاعت أن تقوله. فقد قرأت الرفض في عينيه، وفي توتر ملامحه. ولو قذف برفضه في وجهها لما كان أكثر وضوحاً.

- أنت تمزحين، أليس كذلك؟

- لا.

تبدّدت الثقة التي أنعشتها، وتركتها تشعر بالضياع واليأس. لقد ركّزت آمالها كلها على أمر واحد، وراهنت عليه فلعبت الورقة الوحيدة التي كانت في يدها، فإذا بها تخسر كل شيء.

- أنا لا أمزح.

- أتعنين ذلك؟

وهبّ واقفاً. وكما فعل ذلك اليوم في القصر، استدار مبتعداً عنها واتجه نحو النافذة ينظر منها إلى الخارج، حيث أضواء المدينة. لكنه وبنفس السرعة، عاد إليها: «أي شيطان جعلك تقترحين ذلك؟ أي نوع من الجنون...»؟

- هذا ليس جنوناً.

دفعها اليأس إلى أن تقاطعه بهذه الكلمات ما جعله يسكت ويحدق إليها بعدم تصديق واستغراب تام.

حاجتها إلى أن تواجهه مواجهة النّد للنّد، بدلاً من أن تشعر بالهزيمة

وهي تراه واقفاً مشرفاً عليها، جعلتها ترغم نفسها على الوقوف والتقدم خطوتين نحوه: «هذا ليس جنوناً، يا رامون، يمكن لهذا أن ينجح فتفوز أنت بما تريد وأنا...».

- هذا هو الجزء الذي لا أفهمه وهو ماذا ستستفيدين أنت من هذا كله؟

- حريتي.

كلمة واحدة فقط لكنها تعني الكثير.

- حرية؟؟

- نعم. لقد رأيت كيف هو الحال، ورأيت حال أبي. ومدى تلهفه إلى أن أتزوج، ليصلح سمعة الأسرة التي يظن أنها أصبحت سيئة بسببي.

- أرى أنك تواجهين الأمر جيداً، لأنك ترفضين كل خاطب.

- ولكن لا يمكنك أن ترى كل شيء.

وشعرت فجأة بضعف في ساقيها، فتراجعت إلى الكرسي القريب من المدفأة، بينما أخذ يراقبها مستند إلى الباب وقد شبك ذراعيه على صدره.

- عندما أكون وحدي معه، أضطر إلى الإصغاء إلى محاضراته، والصبر على ثوراته وهو يخبرني بمدى خيبة أمله بي، وكيف جلبت له العار... وللأسرة كلها... ثم لا يذعن ولا ينفكّ عن محاولات دفعي إلى الزواج، ودفع أولئك الرجال إلى طلب يدي... برشوة منه. أنت لا تكون موجوداً عندما يأتون لطلب يدي، عندما يتفحصونني كحصان في المزاد العلني ويتساءلون عما إذا كان ما سأحمله معي يستحق احتمالهم لسمعتي المفزعة. كم أنهكني ذلك يا رامون، وما أشدّ إذلاله لي، وكرهي له!

- افعلي شيئاً للخلاص منه إذن.

- وهذا ما أريد أن أفعله.

وحاولت أن تبتسم لكن ملامحه لم تلن: «أريد أن أتخلص من كل ذلك، لكنني لم أجد طريقة للخلاص إلا بالإذعان لما يطلبه أبي. وما يطلبه هو أن أتزوج. إذا كان في إصبعي خاتم زواج واسم محترم يتلاءم معه، فسينسى الناس الماضي، وأبي سينسى الماضي».

- لكن عليك أن تعيشي مع الحاضر.

- أعلم هذا. أتظنني لم أفكر في ذلك؟ وأنني لم أفكر وأفكر في الأمر حتى ظننت أنني سأجن؟ أظننتني لم أبحث عن حل آخر؟

- ولكن لماذا أنا بالذات؟

- لقد أخبرتك بالسبب..

لكنه يريد أكثر، رأت ذلك في عينيه. وكان لديها المزيد لكنها ليست واثقة مما إذا كان بإمكانها أن تخبره بذلك الآن، ليس الآن ومساحة الغرفة تفصل بينهما، أشبه بهوّة عميقة، ويقف كل منهما على جانبيها المتقابلين.

لا يمكنها أن تخبره الآن! وعادت تكرر: «لقد أخبرتك السبب...»

- أخبريني مرة أخرى.

وتقدم نحوها وانحنى فوقها، واضعاً يداً على ذراع الكرسي الذي تجلس عليه، والأخرى على ظهره. هذا الوضع طوّقها تماماً حتى لم تعد تستطيع أن تتحرك.

غامرت بإلقاء نظرة على وجهه الأسمر وعينيه الباردتين كالثلج ولم تستطع الكلام. خفضت بصرها إلى الأرض وحاولت أن تحدق إلى ركبتيها لكنها لم ترَ سوى جسده الذي يحيط بجسدها، مشكلاً قفصاً

حولها. كان جسده قريباً من وجهها، وغمرتها حرارة جسده ورائحة عطر ما بعد الحلاقة.

مدّ رامون يده ليرفع ذقنها بخشونة ويرغمها على رفع وجهها إليه.

كان هذا أسوأ بكثير. إذا رفعت بصرها، فسيغرق في بحيرتي عينيه الفضيتين.

أمرها بخشونة اخترقت الضباب الذي غشّى ذهنها: «أخبريني عن مصلحتك أنت في ذلك».

- سبق وأخبرتك. إنها حريتي، سأحصل على حريتي.

- وهل هذا يكفي؟ يكفي لكي يجعلك ترتبطين برجل غريب؟

- ليس مجرد رجل غريب... إنه أنت.

وشعرت من أنفاسه أنه يكافح للسيطرة على نفسه.

- ولماذا أنا بالذات؟ لقد سبق وسألتك هذا من قبل يا إستريللا، وسأكرر السؤال حتى تعطيني الجواب. لماذا أنا؟

لماذا أنا؟ كيف لها أن تجيب؟ الحقيقة... إنها الطريقة الوحيدة... ورغم الخوف في أعماقها، وتوتر أعصابها، ازدردت ريقها بصعوبة، ونظرت في عينيه قائلة: «بسبب ما قلته لي عن أنك لم تشأ أن تطلب يدي لأن أبي طلب منك ذلك، فتخليت عن الاتفاقية. هذا هو السبب. ثم... ثم...».

وعندما سكتت قال يحثها: «ثم؟ ثم ماذا؟».

فتنهدت: «ثم هذا... ثم هذا...».

ورفعت رأسها تلامس خده بنعومة، فشعرت بصدمته، وبجسده يتصلب مقاوماً. تملكها خوف هائل من أن تكون قد أساءت الفهم. لعل ذكرى عناقهما الأول يوم تعارفهما مجرد خطأ... غلطة... وهم

أو حلم راودها أو تصوّرات من مخيلتها. لكنها، وبعد لحظة، سمعته يتنهد ثم يعانقها بعدئذ بسهولة.

لم يكن عناقهما يشبه ذاك العناق الأول، بل جاء نقيضاً لتلك البداية الخشنة القاسية تقريباً، إلا أنّ رقته ما لبثت أن أيقظت المشاعر نفسها... الجوع المحرق نفسه. وإذا بتلك المشاعر الخامدة تشتعل لهباً اكتسحها كلياً لينقلها إلى عالم آخر.

الحمد لله... هذا أول ما فكرت فيه وهي ترى أنها لم تكن مخطئة، ولم تكن تتصور أموراً لا وجود لها.

ثم هذا...

هاتان الكلمتان ما زالتا تترددان في أذني رامون، لكنهما آخر فكرة مفهومة استطاع أن يشكلها. فما إن شعر بجسم إستريللا حتى بدا وكأن انفجاراً ضخماً حدث في عقله، فأصاب أفكاره وأحالها إلى خليط لم يعد يفهم منه شيئاً.

كانت الحرارة تكتسح جسده وأفكاره، أمسك بذراعيها ورفعها عن الكرسي وضمها إليه بشدة، بكل المشاعر المحمومة التي تملكته.

- رامون...

صرخت بذلك بشهقة فضمّها إليه أكثر. إنه بحاجة إليها ... إلى كل ما بإمكانها أن تعطيه...

رائحة بشرتها الحارة وشذا عطرها هاجماه بقوة جعلت رأسه يدور.

- ما أروعك...

شعر بها ترتجف وسمعها تناوه باستسلام فلم يستطع أن يمنع ضحكة النصر التي خرجت من فمه.

لم يعرف امرأة تتجاوب بهذا الشكل معه. ولم يعرف مثل عنف هذه

المشاعر الملتهبة التي جعلته يشعر وكأن الذهب الذائب يجري في عروقه بدلاً من الدم.

ورغم لهفته تمتم في أذنها: «إستريللا، يا حبيبتي، يا نجمتي الجميلة... لا يمكننا أن نستمر في هذا...».

كانت هذه الكلمات أشبه بدفق من الماء البارد على رأسها الحار.

لا يمكننا أن نفعل هذا؟

- لا نستطيع..؟ لا نستطيع..؟

رآها لا تصغي إليه فتأوّه محتجاً منهزماً: «أحاول أن أفكر فيك!».

- وأنا أقول إن هذا لا يهمني!

- لكن والدك لن يرحمك...

- لا، لكني لا آبه!

لم تشأ أن تفكر، كل ما تريده هو أن تشعر بأنها مع رامون، تعانق رامون.

قال: «أرجوك، أرحلي الآن.. لا أريد أي مشكلة. سنتحدث في الأمر في وقت آخر، في وضح النهار».

فتحت إستريللا عينيها على اتساعهما ولكن من دون أن ترى شيئاً. كل ما كانت تعيه هو أن هذا الرجل الذي طلبت منه أن يتزوجها، تخلّى عنها ويحاول أن يطردها.

تراكمت مشاعر الإذلال والغضب والألم في داخلها، وتجمعت الدموع في عينيها.

٦ - أملي وخلاصي

أجابته: «قلت لأبي أن يتوقع حضوري عندما يراني فقط».

قالت هذا وهي تنتبه فجأة، وبألم، إلى التفسير الذي قد يضعه لجوابها.

سيستنتج أنها خططت للإيقاع به، وأنها جاءت بغرض إغوائه. وتابعت كلامها: «لكن... من الأفضل أن أذهب إلى البيت قبل أن يتصل بكارمن ويسألها عني».

- اشربي قهوتك أولاً.

لم يكن رامون قد أعطاها جواباً على مشروعها الطائش المتهور للزواج، كما لم يكن لديها فكرة عما يحمل لها المستقبل.

عليهما الآن أن يتحدثا، ويناقشا كل شيء بتعقل. عليها أن تفتح قلبها وتخبره كل شيء، أن تخبره الحقيقة المؤلمة عن كارلوس وعن ماضيها. لكن رامون يبدومختلفاً تماماً.

بدا وكأنه يحتاج إلى وضع أكبر مسافة ممكنة بينهما. لم يكن مضطراً لقول أيّ شيء. فمظهره، وهو يجلس هناك، يوحي بذلك من دون الحاجة إلى أن ينطق بالكلمات.

- أما زلت تفكرين في تلك الفكرة الجنونية عن أننا قد نتزوج؟ إذا كنت كذلك أنصحك بأن تنسي كل هذا حالاً. لن يكون بيننا أي زواج مصلحة. لقد أخبرت أباك بذلك.

- ولكن أبي ليس من عرض عليك الزواج، بل أنا...

- وأنا أعطيك الجواب نفسه الذي أعطيته لأبيك.

كانت كلماته ممزوجة بالحقد ما جعلها تنكمش إلى الخلف، وتتشبث بفنجان القهوة بعنف.

- أنا لا أسعى إلى الزواج. أنا لا أريد الزواج، ولم أرغب فيه قط. أحب حياتي كما هي الآن، وإذا اتخذت زوجة يوماً ما، فستكون امرأة أختارها بنفسي، وليس امرأة تقدم نفسها إلي بثمن، حتى ولو كان الثمن محطة تلفزيونية.

ونظر إليها ساخراً من ذهولها. إنها تبدو مذهولة حقاً، إنها حقاً تظن أنه سيقبل بمشروعها المستحيل. إستريللا تبدو مقتنعة بأنها قادرة على جعله يوافق على مشروعها الجنوني.

لكنه اضطر إلى الاعتراف بأن منظرها الآن، بعينيها الذابليتين وشعرها الفاحم المشعث، وبشرتها الذهبية، يغريه بعنف بأن يقع في تلك الكارثة. لكنه يدرك أن على هذا أن يتوقف.

فهو من بين كل الناس يدرك الدمار الذي ينتج عن الزواج من امرأة لا تحبه. ألم تتزوج أمه من روبين فأمضيا حياتهما في ندم دائم؟ يكفي أن يكتشف الرجل، في ما بعد، أن الطفل الذي أراده لم يكن طفله ليجن.

لن يُقدم على مثل هذا الأمر، مهما فعلت إستريللا.

عليه أن ينهي الأمر الآن، وإلى الأبد. عليه أن يتأكد من أنها ستذهب من دون عودة، لأنها إذا عادت، فقد لا يجد القوة ليفعل هذا مرة أخرى.

أفرغ بقية قهوته في جوفه، ثم ألقى بالفنجان الخالي في الحوض وقال: «أنت ألقيت بنفسك عليّ وأنا رجل طبيعي ذو دم حار. ماذا

ظننتني سأفعل بحق جهنم؟».

- أنا... ظننت...

- ظننت ماذا، يا حبيبتي؟ لم تكوني من الجنون بحيث تظنين أنني وقعت في غرامك؟

يبدو أن هذا أفزعها بقدر ما أفزعه: «ماذا؟ لا! لا، أبداً».

- هذا حسن. يسرني أن فيلم أحلامك لم يصل إلى هذا الحد. إلى أين أنت ذاهبة؟

كيف كان بهذا الغباء؟ يتورط مع إستريللا مدرانو من بين كل الناس؟ إنه يعرف ما هو ماضيها الشخصي، ومع ذلك لم يتوان عن معانقتها، حتى كاد يتورط أكثر. إنها تبحث عن زواج، والزواج ليس له ولن يكون له أبداً.

أغمض عينيه لحظة وأخذ قلبه يخفق وهو يتذكر عناقهما وما كاد يؤدي إليه.

عليه أن يضع حداً لمخيّلته وإلا فلن يتمكن من الامتناع عن إستريللا.

إنها تريد زوجاً، وهو غير مستعد لذلك رغم الشركة التي ستقدمها. لن يبيع نفسه لها، أو لأبيها.

يُفترض أن يدوم الزواج إلى الأبد، إنه التزام عمر. وإذا كانت أمه نفسها لم تبقَ مخلصة لعهود زواجها، فكيف يتوقع الإخلاص من أي امرأة أخرى؟ خصوصاً تلك التي تريده لأسبابها الخاصة وليس بدافع الحب.

نظرة إلى وجهها الجامد المتحجر، والنظرة العاصفة في عينيها، كانت كافية تقريباً لأن تطفىء ناره في لحظة... تقريباً وليس تماماً.

شيء ما فيها لفته. هل هذا ممكن؟ هل هي دموع تلك التي جعلت عينيها تلمعان أكثر من العادة؟ وابتدأ يقول: «إستريللا...».

لكنها هزت رأسها بعنف جعل شعرها يطير حول وجهها كهالة وحشية: «لا أريد أن أسمع كلمة أخرى منك! والآن، سأرحل».

- هذا حسن.

كانت كلماته قاطعة مختصرة وباردة تماماً.

ماذا فعلت؟

أجفلت من ذكرى عناقهما وكيف ألقت بنفسها عليه...

كيف أمكنني ذلك؟ حدثت نفسها بهذا بصوت مرتفع وهي تهز رأسها بيأس مفكرة في حماقتها.

كيف أمكنني ذلك؟ بدا طلبها من رامون أن يتزوجها فكرة جيدة، كما بدا السبيل الوحيد إلى الخلاص من غضب أبيها المتواصل واستبداده ولومه الذي أفسد حياتها منذ تورطها مع كارلوس.

كارلوس!

هوذا الأمر مرة أخرى. أدركت فجأة الفرق بين معاملتها لكارلوس ومعاملتها لرامون.

كان كارلوس قد أوضح منذ البداية أنه يريدها في سريره، لكنها، وهي التي لم تعرف رجلاً في حياتها، والتي تخاف على سمعتها في مثل هذه الجالية الإسبانية الصغيرة المحافظة، امتنعت عنه بقدر إمكانها من دون أن يخطر في بالها قط أنه متزوج. ولم تعلم ذلك إلا بعد فوات الأوان.

أما مع رامون، فلم تفكر قط... عناق واحد منه وإذا بها تشتعل، وهذا ما جعلها ترى كل ما حولها رماداً، الآن.

عندما وصلت الى العتبة رفع رامون رأسه بحدة وركز عينيه على وجهها الشاحب: «لا تذهبي الآن فأنت لم تأكلي شيئاً».

قالت كارهة تمثيله دور المضيف المهذب في حين لا يتطلب الوضع ذلك: «أظنني سأختنق بالطعام».

- أنا لست طاهياً سيئاً.

قال هذا باسماً لكنها لم تتجاوب معه وأجابت: «لكنني لا أريد أن آكل شيئاً، أريد أن أذهب إلى البيت».

- إستريللا...

دنا منها فبدا في عينيها طويلاً عريضاً إلى درجة تشغل البال.

- الوضع في بيتك... هل هو حقاً بهذا السوء؟

نظرت إليه بحذر، متسائلة عن هدفه، ولكنها اكتفت بالقول: «لقد رأيت أبي».

- لماذا لا تتركين البيت إذن... وتبحثين عن وظيفة؟

وسكت فجأة حين لم تستطع أن تمنع ضحكة ساخرة: «لابد أنك تمزح؟ أكرر (لقد رأيت أبي). إنه أكبر سناً بجيلين من أي والدين معاصرين... وأراهن على أنه أكبر من والديك. وأنا ابنته الوحيدة ووريثه. تربيتي كانت تربية فتيات القرون الوسطى، فأنا لا أحسن عملاً أو أتمتع بمهارة خاصة».

وبعد أن ظهرت حقيقة كارلوس كادت تصاب بانهيار عصبي، فلم تعد تستطيع أن تفكر أو تتصرف. وانتقل أبوها إلى البيت، واستلم زمام الأمور في حياتها منذ ذلك الحين.

- لا أحد سيقدم ليّ عملاً.

- أنا سأفعل.

- ماذا؟

لم تصدق ما تسمع.

- سأمنحك عملاً في «شركة الكولار». يمكنك أن تتركي بيتك وتستأجري شقة في مكانٍ ما.

- هل ستفعل ذلك؟

ظنها تقدم له مديحاً. رأت ذلك من لمعان عينيه وابتسامته السريعة الرائعة.

- نعم، سأفعل.

- أتظنني أستحق الوظيفة ولكن ليس الزواج؟

- ليس هذا ما قلته، تباً.

- وأنا لا أتذكر أنني قلت إنني أريد وظيفة.

العمل معه أكثر مما تحتمل، إذ سيكون عليها أن تراه، وتتحدث إليه. وفي كل مرة تفعل ذلك ستتذكر هذا اليوم والإذلال الذي عاشته.

- لو جاءتني الوظيفة كهدية ملفوفة بالذهب الخالص لما لمستها. لا أريد شيئاً منك!

- لكنك ظننت أنك ستحصلين على ما تريدين مني.

فقد رامون أخيراً سيطرته على أعصابه. وتابع يقول: «أكره جداً أن يستغلني أحد».

قال هذا بشراسة فرآها ترفع رأسها إلى الخلف وقد اتسعت عيناها، ثم قالت باحتجاج: «لم يستغلك أحد».

- لا؟ صدقيني، يا حبيبتي، أن هذا ما شعرت به.

- وهل هو استغلال لك أن يُقدّم لك ما قلت إنك تريده أكثر من أيّ

شيء في العالم؟

التفت إليها مصدوماً وهو يظنها عرفت الحقيقة. لكن ذهنه ما لبث أن صفا فأدرك أنها تعني شركة التلفزيون. شركة التلفزيون التي لم تكن أول ما تبادر إلى ذهنه، وهو ما يدعو إلى القلق حقاً.

- سبق وقلت لك إن الثمن مرتفع جداً.

أصاب منها وتراً حساساً. فقد رآها تطرف بعينيها بشدة، وتتراجع لحظة. لكنها عندما استعادت توازنها، بدا واضحاً أنها تستعد للهجوم: «حسناً فعلت حين لم تقطع لي أيّ وعود فربما كنت من الحماقة بحيث قبلت. لقد عاد إليّ وضوح تفكيري، وعليّ أن أقول إنني أميل إلى موافقتك بالنسبة إلى ارتفاع الثمن. أنا، أيضاً، لا أرى انني على استعداد لأن أدفعه».

- طبعاً لا، لأنني، كما قال أبوك، لا أملك النسب المحترم الذي يرجوه.

- لا، ولهذا جئت العاشر في قائمة العرسان المحتمل قبولهم.

لسعه هذا. كان أشبه بضربة سوط على كرامته كرجل، ما جعله يزيح جانباً اعتباراته كلها عن الإنصاف وضبط النفس. لقد عادت إستريللا الأخرى. المرأة الصعبة، الأنانية التي كرهها. وكان بحاجة إلى من يذكّره بها، بعد أن كاد يصدق قصتها عن سوء حظها.

- هل كانت علاقتك بكارلوس بهذا الشكل؟

- دع كارلوس وشأنه... دعه خارج الموضوع.

- لا بأس. سأفعل. ولكن أخبريني يا أميرتي الجميلة مدرانو... أخبريني عن التسعة الذين خطبوك... وعن عدد الذين ألقيت بنفسك عليهم، كما فعلت معي؟

صوت صفعتها على وجهه أسكته بشكل أشد تأثيراً من الصفعة ذاتها، فجمدا لحظة يحدّقان إلى بعضهما البعض، وقد اتسعت عينا إستريللا ذهولاً لما فعلت، فيما راحت تتنفس بعصبية.

وأخيراً قال رامون، رافضاً حتى أن يدعك مكان الصفعة: «حسناً، أظن أنّ الذنب ذنبي أنا».

- هذا صحيح!

ورفعت ذراعيها تشبكهما أمام وجهها بحركة تلقائية تعكس الغضب البالغ والدفاع عن النفس في الوقت نفسه.

- إذا شئت أن تعلم، لم تكن لي صلة بالآخرين، وأنت الوحيد الذي تحدثت إليه، بشكل صحيح. الوحيد الذي عانقته...

واختنقت غضباً فسكتت إذ لم تعد تستطيع إكمال جملتها.

- وهل من المفروض أن يجعلني ذلك أشعر بالفخر؟

هزت رأسها غاضبة فتناثر شعرها الطويل حول وجهها كغيمة سوداء: «أبداً. إنه يُظهر فقط، بعدك وبعد كارلوس، كم أنا غبية وساذجة في حكمي على الرجال!».

- أنا...

شرع رامون بالكلام لكنها قاطعته قبل أن يجد فرصة لذلك: «لا تتكلم. لا أريد منك كلمة واحدة، فقد سمعت منك ما يكفيني بقية حياتي. ظننت أنني أخذت درساً بعد تجربتي مع رجل استغلالي في المرة الأولى. ولكن لا... يبدو أنني في منتهى الغباء، وأنني أستحق أن يدعك أنفي إذلالاً! حسناً، لقد فعلت بي هذا، يا سيد داريو... وأنا أشكر لك إرشاداتك. أظنني فهمت جيداً، هذه المرة... تعلمت الدرس نهائياً. ولا أظنني سأنسى، أبداً».

وقبل أن يستجمع رامون أفكاره ليجيبها، كانت قد دارت على عقبيها واختطفت حقيبتها وهربت، صافقة الباب خلفها.

٧ - بركان نشيط

- ما الذي يحدث لك هذه الأيام، يا رامون؟ أنت شارد دوماً وكأنك في حلم؟

- لعله عاشق. هل هذا صحيح، يا رامون؟ هل السيد العظيم، السنيور داريو، صاحب الكلمة الخالدة (الزواج ليس لي) قد وقع أخيراً في الحب؟

- دعك من المزاح، يا مرسيدس. ما أظنه هو أن رامون مشغول الذهن بالأعمال.

كانت كاسي هي التي تحدثت، مكتسبة بذلك ابتسامة شكر خاطفة من أخ زوجها. وضحكت أخت رامون: «بل مشغول بامرأة! هل هذا هو الأمر؟ لابد أنها امرأة غير عادية لتؤثر في أخي بهذا الشكل!».

امرأة غير عادية... وخطر لرامون أنه يعرف امرأة يناسبها هذا الوصف. في الحقيقة، لم تغادر خياله منذ أسبوع حين اندفعت هاربة بشكل عاصف، من بيته ومن حياته.

لقد حاول أن يمنعها، لحق بها على الفور تقريباً، لكن الثواني القليلة التي أمضاها متردداً كانت كل ما تحتاجه. كان القدر إلى جانبها، كما يبدو. لابد أنها دخلت المصعد حالما تركت شقته، ثم وجدت سيارة أجرة حالما خرجت إلى الشارع. وعندما أصبح خارج المبنى كانت قد رحلت. تبخرت وكأنها لم توجد قط.

- ألا يزال مشغولاً بصفقة شركة مدرانو التلفزيونية تلك؟

كان أبوه من تكلم. جلس جوان ألكولار متكئاً إلى الخلف في كرسيه، فيما راحت عيناه الحادتان المقيّمتان تتأملان وجه ابنه.

أجاب رامون يعترف رغماً عنه: «بشكل ما... نعم».

كان يعلم أن المشكلة لا علاقة لها بالصفقة، بل بابنة مدرانو فقط. مجرد سماع شهرتها جعل أعصابه تتوتر وفكه أيضاً. وقال الأب: «قلت لك أن تنسى ذلك. مدرانو تيس، صغير العقل. إنه يفاخر دوماً بإرث أسرته الكاتالاني».

قال جواكين وهو يجول في أنحاء الغرفة ثم يطبع قبلة على شعر كاسي الأشقر: «هذا كلام رجل ينسى دوماً أن دماً أندلسياً، بالإضافة إلى الدم الكاتالاني، يجري في عروقنا نحن أيضاً. أنت ومدرانو أسوأ من بعضكما البعض يا أبي. لا يمكنك أن تنكر جدنا الأكبر مهما رغبت في ذلك».

منذ أسبوعين، ما كان حديث كهذا ليدور، كما خطر لرامون، لكن ومنذ أن أعلن جواكين وكاسي رغبتهما في الزواج، وأن حفيد جوان الثاني في الطريق... نشأت مودة جديدة بين الرجل العجوز وأكبر أبنائه. ولأول مرة منذ سنوات، أخذا يجلسان معاً بكل استرخاء.

كما أن جواكين كان أنيساً حسن المعشر. وأخذ يتأمله وذراعه حول خطيبته. لا أحد يصدّق أنهما، منذ شهر واحد، كانا على وشك الانفصال نهائياً.

لكن هذا أصبح خلفهم الآن، وكل ما يحتاجونه هو أن يتحدثوا إلى بعضهم البعض... وأن ينسى جواكين رأيه الجنوني في أنه لم يُخلق لعلاقة دائمة.

ذكرى مفاجئة لصوته، هو أيضاً، وهو يقول (لا أريد الزواج، ولن

أتزوج أبداً) جعلته يتململ ثم يسير ليعيد ملء فنجانه من إبريق القهوة على الطاولة المقابلة... قال يخاطب أخاه الأكبر: «أنت لست أفضل كثيراً، بالنسبة إلى العناد والفخر. كل رجال أسرة الكولار سواء».

قالت كاسي ضاحكة وهي ترفع عينيها عن قائمة المدعوين إلى عرسها: «المقلاة وإبريق الشاي». وهتف رامون عاقداً حاجبيه: «ماذا؟».

- لدينا في انكلترا مثل عن معايرة المقلاة لإبريق الشاي بمنادانه يا أسود... في حين أنهما سواء، وأظن أن هذا ينطبق عليك كما ينطبق على جواكين.

عندئذ تدخلت مرسيدس قائلة: «وأنت ألكولار بدمك وطبعك بقدر جواكين، بالنسبة إلى العناد والكبرياء، أنتما أسوأ من بعضكما البعض».

- أنا...

ولم يكمل رامون احتجاجه وهو يتذكر عدد المرات التي رفع فيها سماعة الهاتف ليتحدث إلى «قصر مدرانو»، ثم يعود فيضعها.

حتى أنه قصد إلى منزل إستريللا مرة، لكنه عدل عن رأيه وعاد بعد أن قطع عدة أميال.

وإذ قرر أن الصمت هو أفضل ما يفعله، جلس يشرب قهوته من دون أن يقول شيئاً.

(المقلاة وإبريق الشاي) بقي هذا المثل في ذهنه طوال رحلته إلى بيته، وشغل ذهنه وهو يستغرق في النوم، وفي الصباح كان لا يزال حاضراً.

كان نومه مليئاً بالأحلام، والأحلام لا يشغلها سوى شخص واحد فقط... إستريللا مدرانو. صورها المغرية سمّمت ذهنه وليلته، فراح

يتململ ويتقلب حتى استيقظ في الصباح سابحاً في العرق. حتى عندما استيقظ بقيت تلك الصور تعذبه، وتعنفه لأنها تفقده أعصابه، ما جعله قلقاً متململاً لا يستطيع التركيز على شيء.

إذا أغمض عينيه يرى وجهها، وإذا جلس خلف مكتبه يشتم رائحة عطرها، ويشعر بشعرها الحريري الطويل الأسود على وجهه. وذات مرة، عندما أجاب على الهاتف وسمع صوت امرأة، كان واثقاً من أنه صوتها. لكنها كانت مرسيدس تخبره عن نيتها القيام برحلة إلى انكلترا. ولأول مرة لم يستطع أن يمنح أخته الصغرى الاهتمام الذي تعودته، وشعر عندما وضعت السماعة، أنها كانت بالغة الاستياء والغيظ.

ما الذي حدث له بحق جهنم؟ أخذ يفكر بذلك وهو يتناول ملفاً، محاولاً أن يتذكر ما عليه أن يفعله.

هل عليه حقاً أن يوجه إلى نفسه مثل هذا السؤال؟ ألا يعرف الجواب مسبقاً؟ الكلمتان اللتان جمعتا كل ما يسمّم ذهنه ويسوقه إلى الذهول؟

إستريللا مدرانو...

الحديث الذي جرى بينهما في شقته كان يتكرر في ذهنه مرة بعد مرة حتى شعر أنه سيجن.

- أتريدينني أن أتزوجك؟

- نعم، نعم، أريد ذلك.

- لماذا أنا بالذات؟

- لأنك، عندما طلب منك أبي أن تطلب يدي، لم تشأ أن تفعل ذلك، بل تركت الاتفاقية التي كنت تريدها.

حدث نفسه بأن عليه أن ينساها. لكن من يحاول أن يخدع؟

لم يستطع أن ينساها، فهو يريدها، يريدها إلى حد شعر معه بالألم.

- أما من شيء آخر يمنحك الرضا نفسه؟

- ما من شيء آخر يماثل ذلك.

نتف أخرى من الحديث الذي دار بينه وبين إستريللا، عادت إلى ذاكرته، ما جعله يهز رأسه يائساً. ظن أن الاتفاقية مع أبيها هو كل ما يهمه. فهو يريد تلك الاتفاقية وقد خطط لها وفاوض بشأنها وبذل جهده لكي يحصل عليها.

أدرك أنها تأتي، في الدرجة الثانية بالنسبة إليه.

كان يريد الاتفاقية، الشركة التلفزيونية، وما زال يريدهما كثيراً.

لكنه يريد إستريللا مدرانو أكثر من ذلك. وبتململ وغضب، ألقى بقلمه جانباً ووقف يتناول سترته. إذا بقي على هذه الحال فسيجن حتماً.

حدث نفسه بأنه ذاهب ليراها فقط... يراها ويتحدث إليها ثم...

ولم يشأ ذهنه أن يتابع إلى ما بعد ذلك.

لم يكن يدري ما يكمن خلف ذلك، ولم يخطر في باله السؤال الحقيقي حتى انطلق في سيارته.

أتراه يفكر حقاً في الزواج من إستريللا مدرانو؟

بقيت إستريللا تعاني من صداع قاس طوال الأسبوع، وكانت الليلة قد فقدت قدرتها على التحمّل. وعندما أعلن أبوها أنهم يتوقعون ضيفاً للعشاء، لم تفهم ما يعنيه إلا بعد دقائق.

فهمت ما عناه بعد أن رأت تلك النظرة في عينيه، والحزم في فمه. فهمت أن ذلك الزائر ليس زائراً عادياً من أصدقاء أبيها، بل هو خاطب جديد لها.

- أبي... أرجوك، لا تفعل هذا...

كان قد مضى بعض الوقت منذ حاولت الاعتراض، لكن بعد الاحراج والإذلال اللذين ذاقتهما على يدي رامون داريو، أدركت أن عليها أن تحاول، فهي لا تستطيع أن تعاني مجدداً ما عانته.

لكن جدالها وتوسلاتها ذهبت عبثاً، فقد كان أبوها مصمماً تماماً ولا شيء يمكن أن يغير رأيه.

- لو لم تمرغي اسم مدرانو في التراب، وتعبثي مع رجل متزوج، محطمة بذلك حياة امرأة وولدين مسكينين، لما أصبحت في هذا الوضع. لكنني أحذرك، يا فتاتي، من أن صبري كاد يفرغ.

واقترب منها يحدّق إليها بعنف بالغ جعلها تنكمش خوفاً.

- إما أن تفعلي شيئاً لتؤمّني حياتك بسرعة وإما تجدين نفسك في الشارع حيث مكانك.

- بابا...

- لا... لا أريد جدلاً. إما أن تتزوجي بشكل محترم، وإما أن تخرجي من هذا البيت بملابسك فقط... وسواء غرقت أم نجوت، فهذا لا يهمني.

لم يكن لديها شك على الإطلاق في أنه يعني ما يقول كما أنّ طبع الفريدو لا يمكن الوثوق فيه ومزاجه غامض خطر. كانت خائفة بشكل رهيب مما قد يفعله.

وفجأة، لم يعد عرض رامون لشغل وظيفة لديه يبدو لها غير مقبول. ولكن إذا عادت وقبلت الوظيفة، فسيكون عليها أن تتوسل إليه ليسدي لها هذه الخدمة التي سبق ورفضتها بفظاظة. تذكرت كيف صفعته، وأدركت أنها قضت على فرصتها حينذاك. بالتالي، ما من وظيفة، ومن المحتمل أن يحذو رامون حذو أبيها في صفق الباب في وجهها من دون

أن يهتم مثقال ذرة لما سيحدث لها.

وبعد أن رأت أن الحذر أفضل من الشجاعة في الوقت الحالي، أطاعت أوامر أبيها، في الظاهر على الأقل. فاستعدت للعشاء، وارتدت ثوباً حريرياً أزرق، تبعاً لإرشاداته، ووضعت زينتها ورفعت شعرها إلى أعلى رأسها. لكنها بقيت تشعر بالغثيان والخوف مما ينتظرها. لم تكن تخشى الخاطب الذي يظن أبوها أنه اشتراه ودفع ثمنه، بل مواجهة أبيها، والتي لا مناص منها لاحقاً.

حينذاك سيكون مزاجه مفزعاً.

كان الوضع أسوأ مما توقعت. إستيبان راميرز، الذي اختاره لها أبوها، هذه المرة، رجل يماثله سناً. كما أنه بدين للغاية، وشعره دهني ورائحة جسده مقززة. لكن هذا لم يمنعه من أن يتفحصها من أعلى إلى أسفل كما يتفحص بهيمة معروضة للبيع. كما أنه اغتنم كل فرصة سنحت له للاحتكاك بها والتربيت عليها بيده الساخنة المبللة.

قال لها وهو يقودها إلى غرفة الطعام: «أنت شيء جميل... جميل. وأنا واثق من أننا سننسجم معاً».

كان الطعام بمثابة محنة لها، فهي لم تستطع أن تأكل شيئاً. كانت تكوّم الطعام في صحنها، وما إن ترفع الشوكة إلى فمها حتى تشعر بالغثيان فتعيدها وتسارع إلى كأس العصير تأخذ جرعة منه. ومن حيث لا تدري، تدفقت الذكريات إلى ذهنها فأرغمت نفسها على بلع العصير كيلا تختنق. فسألها أبوها بحدة وقد لاحظ ضيقها: «هل ثمة ما ضايقك؟».

فقالت وهي تشهق: «لا، لا، أنا بخير».

لكن الخير كان عكس ما تشعر به. فقد انتعشت الصور الحارة التي كانت شغلت أحلامها خلال فترات نومها القليل طوال الأسبوع.

وراحت تتخيل صوراً لرامون بجسمه الطويل، وشعره الأسود.

وعادت تسمع صدى كلماته: «أتريدينني أن أتزوجك؟ ولماذا أنا بالذات؟».

- ماذا... ما هو اسمه؟

كان هذا صوت أبيها. وكانت هي من الاستغراق في ذكرياتها بحيث لم تنتبه للخادم وهو يدخل ويهمس شيئاً في أذن أبيها.

- من؟

ألقى عليها أبوها نظرة تقييم باردة ازدادت معها ملامحه تشنجاً، ما جعل معدتها تتوتر فتشهق ألماً.

- داريو؟

ظنت للحظة أنها لم تسمع جيداً، لكن أباها التفت إليها: «يبدو أن رامون داريو جاء ليراك. أتعلمين لماذا؟».

فتحت فمها لكنها لم تنطق بشيء. لا شيء سوى غمغمة غير مفهومة.

هذا مستحيل، لا يمكن أن يأتي رامون إلى هنا. شعرت أنّ رأسها يدور، وكأن أفكارها استدعته... وهزت رأسها عندما حملق أبوها فيها.

- حسناً، من الأفضل أن نرى ما يريده، أخبر السيد داريو أن يدخل.

حتى هذه اللحظة، لم تكن مقتنعة بأن الأمر حقيقي. وسيعود الخادم في أي لحظة ليقول إن الأمر مجرد غلطة أو ستكتشف أنها سمعت الاسم خطأ وسيحضر الخادم شخصاً آخر.

لكن الخادم عاد وفي أثره ذلك الرجل الطويل الأسمر الذي احتل

أفكارها في اليقظة والنوم، منذ اليوم الذي ظهر فيه في حياتها.

كان يرتدي ملابس بالغة العفوية هي عبارة عن قميص أزرق وبنطلون جينز محكم على جسمه بحيث جعل فمها يجف.

إذا أدهشه أن يراهما يتناولان العشاء ومعهما راميرز، فهو لم يظهر دهشته، واتجهت نظراته مباشرة إلى حيث كانت تجلس في الجانب البعيد من المائدة، مقابلاً عينيها البنيتين المنزعجتين بنظرة حملت الكثير من التحدي. ثم جالت عيناه على المائدة، فتوقفتا لحظة على ألفريدو، ومن ثم على راميرز. ورأت عيناه تضيقان بسرعة قبل أن تعودا إلى والد إستريللا.

- سيد مدرانو.

كانت ابتسامة رامون السريعة قمة التهذيب. وحدها إستريللا بحساسيتها المفرطة نحو كل ما يتعلق به لاحظت أنها لم تكن طبيعية تماماً، إذ تردد لحظة قبل أن يبتسم ابتسامة تلاشت بسرعة. وراء تلك الابتسامة مسافة معيّنة جعلت فكه متوتراً وكذلك ملامحه محوّلة عينيه العاصفتين إلى شظيتين من الثلج الرمادي.

- إستريللا...

جاهد رامون ليتحكّم بصوته رغم اضطراره إلى كبح اشمئزازه وغضبه وهو يقيّم الوضع في غرفة الطعام الفسيحة الرسمية هذه.

لم يتطلب إدراكه لما يجري ذكاءً حاداً، فقد استوعب الوضع بنظرة واحدة متفحصة. وإذا كان بحاجة إلى برهان على صحة حكمه فقد وجده في وجه إستريللا الذي عكس القصة لمن له عينان يرى بهما. وشعر رامون أن بإمكانه أن يقرأها كما يقرأ كتاباً.

كانت ترتدي ثوباً أزرق بسيطاً إنما بالغ الأناقة، كما كان شعرها مرفوعاً إلى أعلى بتسريحة معقدة وقد زينته بالمشابك ما جعل أصابعه

متلهفة إلى سحب تلك المشابك. أما الإفراط في زينة وجهها، والظلال والألوان فلم تستطع أن تغطي الظلال تحت عينيها، وخطوط الإجهاد حول فمها.

بدت مذهلة، أروع مما يتذكرها. لكنها بدت أيضاً ضائعة، خائفة وضعيفة بشكل مدمّر. وذلك الضعف حرك فيه كل ما في الرجولة من شهامة ورغبة في حماية الضعيف.

بدا واضحاً أنها تتمنى أن تكون في أي مكان آخر عدا هذا المكان. وسبب كآبتها كان واضحاً. ذلك المخلوق القصير البدين الذي يشبه الضفدع الجالس أمامها على المائدة، إنه الرجل الذي لم يعجبه أن يقاطع العشاء لأنه كان مشغولاً بتعرية إستريللا من ملابسها بعينيه الباردتين النهمتين.

إنه رجل آخر يحاول أبوها أن يبيعها له. الخاطب الحادي عشر إلا إذا كان مخطئاً. وجاهد لكي يكبح طباعه التي تهدد بأن تنفجر في داخله، أشبه بالنيران الحمراء الساخنة التي تغلي في بركان ناشط.

- أي خدمة، يا سنيور داريو؟

أظهر أبوها بوضوح أنه لم يكن مسروراً بهذه المقاطعة، رغم أنه بذل جهداً لكي يحافظ على المظاهر الحسنة أمام أستيبان راميرز. يبدو أنه شعر بأن ظهور خاطب سابق حاول أن يرشوه، سيعرقل خطته للإيقاع بالخاطب الحالي.

قال رامون بهدوء وتهذيب بالغ: «سامحني يا سنيور مدرانو، لم أكن أعلم أنني سأقاطع وجبة طعامك بهذا الشكل. يا إستريللا».

وتملك إستريللا الاضطراب وهي تراه يوجه اللوم إليها قائلاً برقة: «كان يجب أن تخبريني أن أباك يستضيف زميلاً في العمل، لأبكّر بالحضور، أو كنا تدبرّنا تأجيل ما سنعلنه، إلى مناسبة أخرى».

ما سنعلنه؟

- أنا...

وإذ رأته يرمقها بنظرة متوهجة من عينيه الفضيتين، ابتلعت صيحة التعجب الذاهلة التي كادت تنطلق من بين شفتيها. لم يكن لديها فكرة عن اللعبة التي يلعبها رامون حالياً، لكن وحتى تكتشف ذلك، من الأفضل أن تلزم الهدوء.

سألها أبوها بحدة وهو ينقل نظراته بينها وبين القادم الجديد: «أي إعلان، يا إستريللا؟».

لكنها لم تستطع أن تجيبه وهي لا تعرف ما يسعى رامون إليه. ولم تجرؤ على المغامرة بفتح فمها. وهكذا، لوّحت بكأسها نحو الرجل الطويل الواقف إلى الناحية الأخرى من المائدة، مشيرة إلى أنه هو الذي يفترض به أن يتكلم. وقررت أن تبقى هادئة وتوافقه على كل ما يقوله.

عاد ألفريدو بانتباهه إلى رامون يسأله: «أي إعلان؟ ما الذي يحدث هنا بحق الله؟».

- أرجو المعذرة...

بدا على رامون الأسف البالغ وهو يعتذر بإخلاص ما جعل إستريللا تهز رأسها متسائلة عما إذا كانت ترى أو تسمع جيداً، وعما إذا كان رامون هو حقاً الواقف هناك... وحدّقت إليه جيداً فاقتنعت بأنه ذلك الرجل المدمّر الذي سرق قلبها منذ اللحظة التي تقابلا فيها، ولم تستطع أن تستعيده منذ ذلك الحين.

- طلبت من ابنتك ألاّ تقول شيئاً حتى يتسنى لنا الوقت لنخبرك معاً. وقد اضطررت أن أجعلها تعدني... أرادت أن تخبرك شيئاً قبل الآن.

راح ألفريدو ينظر إلى ابنته بتشوّش واضح. وجاهدت هي لكي تبقى ملامحها هادئة. فيما راحت تفكر في ما يريده رامون، محاولة ألاّ تفكر

في الأمور التي تخشاها.

تذكرت مدى الغضب الذي تملكها حين اندفعت هاربة من شقته، وارتجفت في داخلها خشية أن يدفعه غضبه إلى أن يقول ما قد يؤثر في حياتها حقاً. أتراه من الغضب بحيث يفعل ذلك؟

- لكنني أراها الآن وقد وفت بوعدها، وأنا مسرور لذلك فستتاح لي الفرصة كي أقوم بالأمر بشكل صحيح. لقد حصلت على جواب إستريللا، لكنني أريد الآن جوابك.

واستدار نحو ألفريدو وقد استحال فجأة رسمياً تماماً وهو يخاطبه: «يا سيد مدرانو، لقد جئت إلى هنا اليوم طالباً موافقتك على زواجي من ابنتك».

٨ - أنت لي

شعرت إستريللا وكأنها كانت تدور حول العالم أو في كابوس، حيث انقلب كل شيء رأساً على عقب، من دون أن تكون لديها فكرة عما كان يحدث.

ما الذي يتحدث رامون عنه؟

ولماذا يفعل هذا؟

والأهم من ذلك، هل يعنيه حقاً؟

شعرت وكأنها عاشت أعماراً عدة... أعماراً مليئة بالذعر وعدم الثقة المخيفة قبل أن يخف دوران العالم أخيراً ويعود فيستقر على محوره من جديد. عندئذ، فقد إستيبان راميرز أعصابه وخرج وقد تملكه غضب عنيف، بينما ألقى أبوها على رامون أسئلة عدة حادة خشنة فأجاب عنها بهدوء وبرودة.

افترضت إستريللا على الأقل أنه أجاب عنها. الطنين في أذنيها الشبيه بصوت آلاف النحل شوش عليها سمعها. شعرت بدوار وغثيان وأصبح التركيز على أي شيء يتعبها، فأخذت الكلمات التي نطق بها رامون تدور في فوضى أفكارها.

(جئت إلى هنا اليوم طالباً موافقتك على زواجي من ابنتك).

لقد شمل إستريللا في إعلانه هذا، مشيراً إلى أنها كانت جزءاً منه، وأنها تعرف كل شيء عن الموضوع. بينما هي لا تعلم شيئاً عما يحدث. ففي آخر

www.elromancia.com

مرة رأت فيها رامون أوضح لها أنه لا يريد أن يراها مرة أخرى.

- حسناً، سأترككما معاً إذن...

بدا لها وكأن صوت أبيها قادم من مسافة بعيدة للغاية، من نهاية نفق مظلم. وسمعت صوت باب يقفل بحزم، ثم ساد السكون مرة أخرى.

أصبحت وحدها مع رامون داريو الصامت. وببطء، أخذت تصحو من عالم الكوابيس الجنوني. ونظرت إلى ذلك الرجل الطويل الأسمر الذي يقف عند آخر المائدة، ووهج الشموع ينعكس على شعره. أدركت أنه ينتظر منها أن تتكلم، لكنها لم تجد ما تقوله.

- حسناً، يا عزيزتي إستريللا؟ ما هو شعورك بعد أن أصبحت مخطوبة؟

- إلى... إلى من؟

حتى هذه اللحظة لم يكن لديها فكرة عما حدث بينه وبين والدها. أتراه طلب يدها من والدها حقاً؟

وأجابها بصوت ضاحك: «إليّ، طبعاً».

لكنها سمعت في صوته نبرة باردة توحي بالضيق، وهو يتابع: «من ظننت إذن؟».

لا يمكن أن تُخطب له... هذا لا يمكن حدوثه... أو لعله ممكن؟

- ولكن لماذا؟

أجاب بلهجة مرحة ظاهراً تخفي في طياتها خطراً: «لماذا؟ أظن أن هذا واضح تماماً. أنت تحصلين على حريتك التي تبحثين عنها، وأنا أحصل على ما أريد».

كان هذا أشبه بصفعة. سيتزوجها ليحصل على شركة التلفزيون.

ما كان ينبغي لهذا أن يؤلمها إلى هذا الحد... فهي طالما علمت هذا. لكن، ولسبب ما، صدمها كلامه البارد أكثر مما كانت تتصوّر. أدركت أنها لا تعني له شيئاً شخصياً سوى كونها وسيلة توصله إلى غاية، ما آلم روحها وتركها ترتجف من التعاسة.

ماذا يعني هذا؟ هل كانت تريد حقاً أكثر؟

هل كانت ترجو شيئاً آخر؟ المزيد من المشاعر؟ ما يجعل هذا زواجاً حقيقياً، مبنياً على... على...؟

على الحب؟ تسللت هذه الكلمات إلى أفكارها غير مرغوب فيها أو مرحّب بها.

كلا! وجاهدت لتبعد هذه الفكرة عن ذهنها. في الماضي، ظنت أنها مغرمة بكارلوس، كما ادعى هو أنه مغرم بها. ولم تدرك إلا بعد أن علمت الحقيقة أنه لم يكن بينهما أيّ حب أبداً. لقد رغب فيها فقط. وكان مستعداً لأن يكذب ويغش ويخدع من أجلها... حتى أنه كان مستعداً لأن يرتكب جريمة لكي يحصل عليها. لكن رامون لم يتظاهر، ولم يكذب. بل على العكس، كان صريحاً إلى حد الفظاظة ما جعلها لا تشك في مشاعره نحوها.

قال ساخراً: «ما المشكلة، يا إستريللا؟ هل غيرت رأيك بالنسبة إلى الصفقة التي عرضتها عليّ؟ هل تظنين أنك عرضت نفسك رخيصة؟ أم لعلك تريدينني أن أركع وأطلب منك أن تتزوجيني رسمياً؟».

- لا!

دفعتها الصدمة إلى النطق بهذه الكلمة. أفزعها للغاية تصوّرها هذا الرجل الرائع المزهوّ بنفسه وهو يركع على ركبته أمام قدميها من أجل شيء لا يعدو كونه كذبة.

- لا، ما من حاجة لذلك.

الضيق جعل صوتها أبرد مما كانت تنوي أن تظهره، وتابعت تقول: «لكنني واثقة من أن هذا ما كان في ذهن أبي حين تركنا وحدنا».

- لقد حصل أبوك على أكثر مما يستحق. من الآن فصاعداً لن يكون هناك سوانا، نحن.

- هذا يناسبني.

وذهلت وهي تفكر كم يناسبها ذلك. لقد أرسلت كلماته دفقة من الحرارة في جسدها جعلته يتوهج: «لا بدّ أن أبي يتوقع أن أحصل على خاتم».

كانت تجاهد ليستمر الحديث بينهما. لم تشأ أن تكون هنا، في الطرف المقابل من الغرفة، جالسة في مثل هذه الفخامة الموحشة. مجرد رؤيتها له أنعشت ذكرياتها كلها عن عناقهما.

جلوسها هنا، والمائدة الكبيرة تفصل بينهما، جعلها تشعر بالضياع والوحدة. وارتجفت برداً رغم الدفء في الغرفة لكنها لم تعرف كيف تتجاوز الهوة التي تفصل بينهما. فالتغلب على الإنفصال المعنوي أصعب بكثير منه على الانفصال الجسدي. كل ما عليها فعله هو أن تنهض وتتقدم منه خطوات، فتصل إليه. لكنها لم تستطع أن تجد القوة اللازمة لتفعل هذا.

- طبعاً، وسنبتاع الخاتم غداً معاً إذا كنا سنمضي قدماً في هذا الأمر.

- وهل سنفعل؟

النظرة التي رمقها بها كانت مزيجاً غريباً من السخرية والتأمل والهزل: «أتظنين أن أباك سيدعني أتراجع الآن بعد أن وافقت على شروطه؟».

خطر لرامون أنّ هذا أسخف حديث يدور بينهما بعد الخطبة

مباشرة، كانت لا تزال جالسة عند طرف المائدة، بينما وقف هو عند الطرف الآخر على بعد أميال منها، أو ربما هذا ما شعر به. لو كان هذا زواجاً عادياً، لارتمت الآن بين ذراعيه . . .

يا لجهنم. . . إنه يريدها بين ذراعيه.

- ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

كيف سيجيب عن هذا؟

في الواقع، لم يدرك أنه غيّر رأيه حتى وجد نفسه في الطريق إلى هنا. حتى حينذاك، حدّث نفسه بأنه سيراها فقط. وقد يستدير عائداً من الرحلة في أي لحظة .

لم يحدث التغيير إلا بعد أن دخل إلى هذه الغرفة ورآها جالسة. فقد شعر بأن عليه أن يحصل على هذه المرأة مهما اقتضى الأمر.

- حضوري إلى هنا. . .

بدأ جمله قبل أن يتدارك الأمر، ويلاحظ ما أوشك أن يقوله: «حضوري إلى هنا ورؤيتي لرفيقك على العشاء. . . ذلك الضفدع. هل هو الخاطب الحادي عشر؟».

- نعم. . كان كذلك.

ونظرت إلى حيث كان إستيبان يجلس وارتجفت اشمئزازاً.

- إذن، يبدو وكأنني جئت في الوقت المناسب. هل كان والدك سيبيعك له؟

فقالت بابتسامة كئيبة موحشة: «لديه لقب نبيل يقدمه لي. . . لقب محترم، بعد الزواج».

تمتم رامون بكلام فظ فاتسعت ابتسامتها قليلاً وأردفت: «وهل من فرق كبير بيننا؟ يمكنك أن تقول إنني. . . إنني بعتك نفسي بثمن شركة

تلفزيونية».

- يا لجهنم، لا طبعاً... بيننا ما هو أكثر من هذا بكثير.

- أحقاً؟

عندما أدارت إليه عينيها الكبيرتين، شعر بأن ما في داخله قد ذاب ولم يخلّف سوى الحرارة. بدا له وكأن هناك فتاتين باسم إستريللا، واحدة تبدو من الهشاشة بحيث قد تحطمها لمسته، وهي المرأة السريعة العطب التي عرفها أولاً... صاحبة السمعة السيئة في محيطها. أما الثانية فالأنثى التي يشمئز منها، المرأة الأنانية التي سرقت زوج امرأة أخرى.

أي واحدة منهما هي إستريللا الحقيقية؟ لم يستطع أن يتكهن.

لكن وفي هاتين المرأتين، كانت إستريللا ثالثة. إستريللا محمومة العواطف ذات دم حار وجمال مدمّر.

إنه مستعد لتقديم أي شيء لكي يحصل على هذه المرأة، ليأخذها بين ذراعيه، هذا هو سبب وجوده هنا. أما شركة التلفزيون اللعينة فهي تأتي بعدها من حيث الأهمية.

- مثل ماذا؟

ضحك رامون مرة أخرى، بدفء حقيقي هذه المرة. كان يعلم أن الدفء سيظهر حتماً على وجهه، ويتألق في عينيه حين يبتسم. ورأى التجاوب ينعكس على وجهها.

- هل عليك حقاً أن تسألي هذا السؤال؟

ومد يده إليها مضيفاً: «تعالي إليّ يا إستريللا، تعالي ودعيني أريك».

تحركت وكأنها ستطيعه، ثم عادت فجمدت متصلبة في كرسيها.

كانت عيناها كبيرتين قاتمتين كأبنوس ملمّع وهي تتسمّر على وجهه بتردد غريب شحب له وجهها. وتمتم هو بصوت أجش: «إستريللا... تعالي».

لكنها بقيت تتمهل، مجفلة وكأنها تريد أن تتحرك، لكنها تخشى ان تفعل ذلك.

وبتقطيب خفيف أظهر من الاضطراب أكثر مما أظهر من الغضب تقدم نحوها خطوات عدة، راحت عيناها العميقتان السوداوان تراقبان تقدمه وهما تزدادان اتساعاً وسواداً، مع كل ثانية. وعندما وصل ووقف بجانب كرسيها رفعت بصرها إليه وتشابكت أعينهما ثم سمعها تشهق بصوت خافت عندما أمسك بأعلى ذراعيها بحزم: «لا أراك خائفة مني؟».

ولم يستطع أن يمحو الخشونة من صوته وهو يردف: «أنت لست إستريللا التي جاءت إلى شقتي تعرض.. تعرض عليّ الزواج...».

شعر بالرعشة التي سرت في جسدها فازدادت نظراته حدة وهو يتأمل وجهها.

رفعها ببطء وجرها عن كرسيها ثم أوقفها أمامه. وغمره عطرها. أتراها وضعت هذا العطر من أجل ذلك الضفدع أم لتمنح نفسها مزيداً من شجاعة تواجه بها خاطباً آخر؟

- تصوري حياة مؤلفة من لحظات مماثلة... كل لحظة أجمل من سابقتها.

رآها تبتلع ريقها ثم تبلل شفتيها بلسانها: «الزواج أكثر من مجرد لحظات جميلة وحميمة».

- ستكون حياتنا رائعة بليال محيّرة لن تنسيها أبداً. ستكون ليالٍ تمضين النهار متشوقة إليها وتحلمين بها.

لم يبد عليها الاقتناع بعد. ماذا حدث لتلك الجريئة المغرية إستريللا؟

- وهل سيكون هذا كافياً؟

- سيكون كافياً بالنسبة إلي. أتريدين برهاناً؟ يمكنني أن أعطيك هذا...

وأحنى رأسه وعانقها عناقاً رقيقاً جعلها تتأوه وتصدر صوتاً يعبر عن لذة ضائعة.

همس بجانب خدها: «أليس هذا كافياً بالنسبة لأي شخص؟».

فأجابت بصوت خافت: «آه، نعم، آه نعم...».

واسترخى جفناها وكأنها استيقظت من نوم عميق إثر تناولها حبوباً منوّمة. ولكن عندما فتحت عينيها ونظر في أعماقهما أدرك أنها أصبحت له.

وقال بلهجة المنتصر: «أنت لي، لي أنا فقط».

ذكرى ذلك الضفدع إستيبان راميرز جالساً قبالتها، وعيناه مسمرتان على وجهها الجميل، جعلته يكاد يتقيأ. مجرد التفكير في أنه قد يلمسها، جعله يصرف بأسنانه وقد تصاعد غضبه.

- كيف يمكنني أن أدع رجلاً آخر يتملكك...؟

اخترقت هذه الكلمات الضباب الذي غشا عقل إستريللا، مبددة ذلك الدفء الذي أثارة عناقه فيها. كانت قد رحّبت بذلك الدفء فهي بحاجة وشوق إليه، ودعت الله أن تجده مجدداً.

ولكن، هذا، تغيّر فجأة. النبرة الجديدة في صوت رامون، نبرة التملّك الخطرة القاسية الكامنة خلف كلماته التي قالها «كيف يمكنني أن أدع رجلاً آخر يتملكك...».

- ما من رجل آخر؟

كانت ضحكته خشنة مرة لا حرارة فيها: «وماذا عن الخاطب الحادي عشر؟ ماذا عنه وعن اسمه المحترم؟».

فارتجفت لهذه الفكرة: «أرجوك... ما كنت لتتمناه لي».

- لكن أباك كان يريده لك.

لم تستطع أن تمنع نفسها من التساؤل عما إذا كان هذا هو السبب الوحيد في عودته إليها. لكي يتملكها فقط وكأنها أمة مستعبدة له؟ تحفة ثمينة يشتريها لنفسه إذا ناسبه الثمن؟ شيء لم يكن يريده حقاً، حتى خطر له أن رجلاً آخر قد تسنح له فرصة تملّكه، عندئذ أدرك مقدار رغبته هو فيها لنفسه.

- كنت سأرفضه وأنت تعلم ذلك. عليك أن تعلم. أنت الرجل الوحيد الذي...

عندما فاتتها الكلمات قال: «نعم، أعرف. أنت تشعرين بشيء ما نحوي».

مرت لحظة مخيفة ظنت أثناءها أنه غيّر رأيه. وأدركت أن ذهنه عاد إلى تلك اللحظة في شقته حين رمت بتلك الكلمات في وجهه.

وتمتم مرة أخرى بصوت خافت متوحش: «كنت تشعرين بشيء ما نحوي».

عندما ظنت أنها لن تتمكن من حبس أنفاسها أكثر، وعندما أخذت تعض شفتها بخوف وتوتر، عاد ينظر إلى وجهها فجأة، ثم تملكها الذهول وهي ترى الوجه الحذر القاسي يشرق فجأة بابتسامة مدمّرة: «وأنا، يا نجمتي أريدك إلى حد لا أستطيع معه أن أفعل شيئاً، لقد شغلت حياتي ولن أعود إلى ذاتي مرة أخرى حتى تصبحي في سريري، وإذا كان ذلك يستدعي الزواج، فسنتزوج».

أتراها حقاً ستفعل ذلك؟ هل حقاً ستمضي قدماً في هذه الفكرة الجنونية وتتزوّج من رجل لا يحبها؟ رجل يشتهيها فقط؟ ظنت... أو جعلت تقنع نفسها، أن كارلوس أحبها في حين أنّ كل ما قاله لها كان كذباً من البداية إلى النهاية.

كان رامون عنيفاً لكنه صادق على الأقل. إنه يريدها... وهي تريده... رباه، كم تريده! فبمجرد أن تقف بجانبه، كل إحساس فيها يتنبّه بعنف. بهت أبوها وعرسانه المعروضون، وتعاسة حياتها في القصر، والأقاويل، ولم يعد لكل هذا معنى إزاء ما تشعر به نحو رامون.

قالت بصوت منخفض إنما حازم: «سنتزوج».

- وحالاً.

قال هذا بحدة فلم تستطع إلا أن تحني رأسها موافقة.

خطرت لها فكرة، فرفعت بصرها فجأة ونظرت إلى الوجه المتوتر المسيطر ورأت وهج الرغبة في عينيه واللون الخفيف الذي زحف إلى وجنتيه.

- هذا الزواج... كم سيدوم؟

طرحت هذا السؤال مترددة من دون أن تجرؤ على أن تسأل نفسها لماذا. لم يجب على الفور، ورأته يفكر في سؤالها هذا مقلّباً الأمر في ذهنه. في هذه الأثناء كانت تقاوم بحدة وضيق رغبتها في أن تعرف الجواب وذلك لأسباب لم تجرؤ على أن تتفحصها على ضوء النهار.

وأخيراً أجاب وهو يتأمل وجهها الشاحب بعينين فولاذيتين: «حتى نحصل جميعاً على ما نريد».

- وما هو ما نريده؟

كشف صوتها عن اهتمامها برده عن سؤالها هذا... لكن لم يبد عليه أنه لاحظ. وإذا ما لاحظ فلم يظهر ذلك على وجهه: «أنت تريدين أن تتحرري من التقييم والفحص وكأنك فرس تقدّم في معرض، وأبوك يريد حفيداً يرث أملاكه ولقبه، وأنا...».

وتلاشى صوته وهو يحدّق إلى وجهها، مركزاً عينيه على شفتيها الناعمتين اللتين انفرجتا بتوجّس وتردد.

وتمتم بصوت أصبح خشناً فجأة: «وأنا أريد هذا...».

وأحنى رأسه بسرعة وعانقها بمشاعر مشبوبة، لا أثر للرقة فيها، بل مجرد عاطفة مشبوبة عنيفة.

تجاوبت إستريللا معه بصمت ومن دون تفكير. لم يكن بإمكانها القيام بخلاف ذلك، فجسدها لم يعد تحت سلطة عقلها، بل أصبح لرامون.

مضى وقت طويل طويل قبل أن يبتعدا عن بعضهما البعض، وقد دار رأسها وتسارعت خفقات قلبها وغامت عيناها.

قال يجيبها: «ما دام هذا مستمراً بيننا، يا حبيبتي».

وعانقها مرة أخرى بعنف أكبر هذه المرة: «ما دام هذا مستمراً بيننا، سنبقى معاً».

٩ - زواج حقيقي

وضعت مرسيدس آخر زهرة برتقال في شعر إستريللا المزيّن ثم وقفت بعيداً لترى تأثيرها.

- أظنه يبدو رائعاً... لكن من الأفضل أن أعرف كيف يبدو ثوبك.

كانت النظرة التي وجهتها إلى إستريللا من خلال المرآة مليئة بالتوسل، وأملت أن تقنعها بأن تطلعها على طراز ثوب الزفاف.

لكن إستريللا هزت رأسها بحزم، غير متأثرة بتوسلات مرسيدس: «هذا سرّي وحدي. لم أتوقع هذا الاحتفال والاهتمام كله الذي لا ضرورة له».

فنظرت مرسيدس إليها غير مصدقة: «ماذا؟ ها توقعت من رامون أن يتزوج في السرّ، أو يكتفي بحفل بسيط هادئ؟ إنه أخي الذي نتحدث عنه. رامون داريو... والذي سيصبح قريباً جداً الثاني في دعم مؤسسة أبي مالياً».

كان هذا ما توقعته إستريللا بالضبط، ولكن ليس ما أراده رامون على ما يبدو. في الواقع، إنّ ما أراده رامون معاكس تماماً لما كانت توقّعته ما جعلها تتساءل عما إذا كان الرجل الذي وافقت على أن تتزوجه هو نفسه الذي عرفته عندما جاء ليفاوض أباها على شراء محطته التلفزيونية.

كانت تضع خاتم الخطبة. وبما أنها أدركت أن زواجهما ما هو إلا

زواج مصلحة، من دون أي مشاعر، باستثناء الرغبة العميقة التي اعترف رامون أنها سبب طلبه ليدها، توقعت أن يتزوجا بسرعة ومن دون بهرجة، سيطلب أبوها الخاتم فيشتريه رامون لها. لكن الأمر لم يتم على هذا النحو.

لم يشتر رامون خاتماً غير عادي وحسب، بل نظّم احتفالاً غير عادي أيضاً، ليلبسها هذا الخاتم. أقام حفلة دعا إليها أفراد أسرته وأصدقائه وأفراد أسرة إستريللا أيضاً.

وذات مساء، حينما ذكر أمر الحفلة، سألته عن السبب وعمن سيدعو إليها: «ولكن لِمَ؟ لماذا كل هذا التعب من أجل زواج عمليّ مرتّب ليس إلاّ؟».

نظر إليها رامون ببرودة غريبة وراح يقيّمها بعينين ضيقتين: «لا أحد رتّب هذا الزواج لي. لقد طلبت يدك باختياري وقراري وحدي».

- ولكن... ولكن...

لم تعرف ما عليها أن تقول. ثمة كلمات في ذهنها لكنها لم تشعر بأنها غير قادرة أو مستعدة لمشاركته بها.

ما من أحد خطط لزواجهما، ولكن وكأن هذا ما حدث فعلاً. فما من عواطف أو مشاعر في زواجهما. رغبة فقط وحاجة إلى اسم... فضلاً عن الصفقة التي يريدها رامون من والدها. لم يكن زواج حب ولهذا لا يمكن اعتباره حقيقياً. المرارة التي شعرت بها لهذه الفكرة جعلتها تعض لسانها بحدة، مفضلة أن تؤلم نفسها بهذا الشكل على أن تدع الحقيقة تظهر.

وسألها بعنف: «ولكن ماذا؟».

- هل... لِمَ تريد أن تزعج نفسك بكل هذا من أجل زواج غير حقيقي؟

- لكنه زواج حقيقي!... زواج حقيقي بالنسبة إليّ. ولكن، أخبريني... هل تشعرين بالخجل من هذه الخطبة؟

- أشعر بالخجل؟ لا، أبداً. ولماذا أشعر بذلك؟

صُعقت لمجرد تفكيره في هذا.

- حسناً، لأننا نعرف أنني لست الأول في قائمة طلاّب يدك... .

إذن، ما زال يشعر بالمرارة حيال ذلك؟ وكبحت الابتسامة الخفيفة الغامضة التي لاحت عند زاويتي فمها. رامون رجل مزهو بنفسه للغاية، وهويكره حقيقة أنه العاشر في تلك القائمة الشنيعة.

- تلك قائمة أبي.

لكنه تجاهل مقاطعتها وتابع: «كما أن سلالتي ليست كاتالانية خالصة... ما من سلالة خالصة، في الواقع».

فقالت تذكره: «إستيبان راميرز من سلالة كاتالانية خالصة وأنا أرتجف خوفاً لمجرد التفكير في حياتي لو أنني انتهيت معه. ربما لدى أبي هاجس السلالة والدم النقي، لكنني لست كذلك أبداً. وإلا لما تورّطت مع...».

وتملكها الذعر فجأة مما أوشكت أن تقوله، ورفعت يدها تقفل فمها، فأكمل هو كلامها بجمود: «مع كارلوس».

لكن ضمير إستريللا عنّفها فجأة، وحدّثها بأن عليها ألاّ تبقى صامتة بعد الآن، وأن عليها أن تخبره. لقد تمكنت من مواجهة أبيها بتمرد، مستنكرة الشائعات عنها بخشونة، مدعية بأنها لم تسمع الهمس خلف ظهرها.

ولكن ليس مع رامون. شيء ما في هذا الرجل يطالبها بالانفتاح والحقيقة... ولا شيء أقل من ذلك. لا يمكنها أن تكذب عليه، لا

يمكنها أن تخفي مشاعرها كما اعتادت أن تفعل مع الآخرين. عندما تكون معه، يتمزّق القناع الذي تجاهد لتخفي به ملامحها، فيغيب غشاء الهدوء الكاذب ليكشف عن المرأة الضعيفة، غير المصقولة، وهي إستريللا الحقيقية.

- لم أكن أعلم أن كارلوس متزوج.

قالت هذا فجأة قبل أن تجد فرصة لتغير رأيها وتفقد شجاعتها.

النظرة التي ألقاها عليها رامون كانت متأملة أكثر منها مشككة، ومع ذلك أثّرت في أعصابها المرهفة للغاية. شعرت بالضعف إزاء ما رأته في عينيه من استنكار، ورفض، وعادت تقول: «لم أكن أعلم. لقد أخبرني أنه غير متزوج».

- وأنت صدقته.

- نعم.

ردّها جاء همساً، لكن ليس للسبب الذي ظنه.

الخيانة والألم اللذان ألحقهما كارلوس بها ما زالا في أعماقها. لكن، ولسبب ما، أصبحت الآن تراهما بشكل مختلف، وهكذا فبدلاً من أن ترى الماضي أقرب، أصبحت تراه الآن أبعد بكثير، وخففت المسافة البعيدة من ألمها.

أصبح هذا يتكرر منذ دخل رامون إلى حياتها، فقد ألهاها في البداية وأعطاها شيئاً آخر تفكر فيه، حتى أنها لم تعد تستطيع أن تخرجه من ذهنها. بذهابها إليه في بيته تلك الليلة كانت ترجو أن تتخلص من أفكارها المضطربة عنه... لكن حدث العكس فقد شغل رامون عقلها إلى درجة أنّ أحداً آخر لم يعد يستطيع أن يؤثر في مشاعرها. لقد أصبح هاجساً تفكر فيه حالما تنهض في الصباح وقبل أن تغفو في الليل.

- نعم. صدقته.

حدّث رامون نفسه أنها تتوقع منه أن يصدقها، راجياً ألّا يضطر إلى ذلك. لم تستطع أن ترى أنه مستعد لنسيان الماضي، وأن ما يهمه هو ما بينهما الآن. وبدلاً من ذلك، اختلقت هذه القصة السخيفة... هذه الكذبة... لابد أنها كذبة.

كانت تعلم طبعاً أن كارلوس متزوج. وكيف لا والكل يعلم هذا. حتى هنا، في برشلونة، شاعت القصة، وتسربت الفضيحة وتمرغت كبرياء ألفريدو الكاتالونية الشرسة في التراب من أفعال ابنته العنيدة المشاكسة.

الإبنة العنيدة المشاكسة التي ستصبح زوجته المشاكسة.

الزوجة التي لم تستطع حتى أن تخبره الحقيقة، بل حرفت القصة لتظهرأنها بريئة. ما زالت تكذب... ما زالت تستغله...

لكنه، لم يكن يهتم حالياً... إنه يريد هذه المرأة في سريره، وإذا كان الزواج هو وسيلته الوحيدة إلى ذلك، فليكن هذا الزواج.

- آه، يا لجهنم.

وشدّها إليه بخشونة وضمها إليه بعنف حبس أنفاسها. وفيما راحت تجاهد لتتنفس بشكل طبيعي، وضع يده تحت ذقنها وأرغمها على مواجهته برفع وجهها إليه ثم قال: «سأجعلك تنسيه، سأمحو صورته من مخيّلتك، وكل تفكير فيه من روحك. لن تفكري فيه مرة أخرى أبداً... أبداً».

- أنا...

حاولت أن تتكلم، لكنه لم يترك لها سبيلاً إلى ذلك..

- أنت لي... لي وحدي يا «دونا إستريللا»، ولست لأحد آخر. ما دام خاتمي في إصبعك، فستحملين إسمي وتشاركيني بيتي، ثم تبقين لي، لي وحدي.

وختم كلمته بعناق قاس جعلها تشعر وكأنها أمة مستعبدة مدموغة بختم سيّدها إلى الأبد.

- ملكي أنا... ملكي أنا.

وكان هذا كل ما تريده، كما اعترفت في أعماقها. التجاوب البدائي الذي يغلي في عروقها عندما يلمسها هو كل ما تريده حالياً. كان لهذا التجاوب قوة اكتسحتها، وأخرجت بقية الأفكار من ذهنها، ما تركها عاجزة. لقد حوّلها إلى حطام مرتجف مهتز، إلى امرأة ليس في ذهنها سوى شخص واحد.

وهو هذا الرجل.

رباه، كم تريده!

يكفي أن يظهر أمامها ليغلي دمها في عروقها... أن ينظر إليها لتضيع... أن يلمسها لتستحيل إلى لهب. إنها تعيش حياتها في حالة من الذوبان الدائم.

يفترض أن يكون هذا مخيفاً. منذ عام... منذ شهرين كانت لتقسم على أن هذه الحالة تفزعها، ولكن هذا لا يحدث الآن.

كان هذا جميلاً ورائعاً ومثيراً ومنعشاً. كان كالطيران في سماء صافية، وأمامها الشمس الدافئة. إنها تشعر بأنها حية، ومثل هذا الشعور لم يتملكها منذ وقت طويل، حتى قبل أن تعرف كارلوس.

أجابته وهي تبادله عناقه: «وأنا لك»

* * *

التهب وجه إستريللا لمجرد الذكرى وهي تنظر إلى الخاتم الذي وضعه رامون في إصبعها في الحفلة التي أقامها منذ ليلتين. لمسته برقة ومرّت بإصبعها على الماسة الرائعة المتألقة والتي اتخذت شكل نجمة، وهي إشارة ترمز إلى معنى اسمها بلغتها الأم. لم تتوقع قط شيئاً كهذا،

ولم تحلم قط بأنّ يقدّم لها شيئاً رائعاً مذهلاً كهذا.

- لا... لا أدري كيف أشكرك.

قالت له ذلك متلعثمة عندما هدأت تهاني الأصدقاء، واستطاعا أخيراً أن يختلسا لحظات عدة أمضياها وحدهما في زاوية من القاعة الفسيحة في منزل أبيه.

لكن رامون رفض شكرها بهزة متغطرسة من يده القوية وقال وقد بدت ملامحه غامضة:

- أنت خطيبتي، ومن الطبيعي أن ألبسك خاتماً. على أيّ حال، لا أريد أن يظن أحد أن هذه الخطبة غير حقيقية. وخصوصاً والدك.

ذكره لأبيها جعلها تجفل داخلياً. لم تشأ أن تفكر في السبب الذي جعل أباها «الدون مدرانو» يبتسم فجأة، ويتلفت مرتين ليلقي نظرة لطيفة على ابنته التي لطالما خيّبت الأمل، ونظرات أكثر استحساناً على صهر المستقبل.

- أبي شاكر جداً لأنه سيتخلص من ابنته القليلة الحياء. وهو يظن أنك رجل رائع لأنك ستأخذني من يده بالرغم من سمعتي المخزية كامرأة فاسقة.

كان تقطيب رامون الحاد أشبه بطعنة سكين. كانت تعلم أن صوتها بدا مشاكساً، وشبه هجومي، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها. كانت تعلم كل شيء عن الساعات التي أمضاها رامون مع أبيها ومحاميه في غرفة المكتبة المقفلة وعن المفاوضات السرية التي جرت لتقرير مصيرها. لم يكن رامون قد أبلغها بأي تفاصيل لكن أباها فعل. علمت كل شيء عن الصفقة التي قدمها أبوها على أنها حصته من المعاملة التي جرت بينهما، فكانت واثقة من أن رامون خرج من الغرفة بصفته المالك الجديد لشركة التلفزيون التي لطالما تمناها... بنصف الثمن الذي كان

ينوي أن يدفعه في البداية.

قال ساخراً وهو ينظر إلى جسدها الرشيق في الثوب الأسود والذهبي الذي تلبسه: «لعلي اخترتك لأنك امرأة فاسقة، لأن المرأة الفاسقة هي التي أفضلها في حياتي».

الابتسامة التي تباطأت على شفتيه بعد أن تلاشت الكلمات أنبأتها بأنه كان يفكر في الأوقات التي تنتظرهما، والطريقة الحارة التي سيمضيان فيها أمسياتهما.

- لن أكتفي منك أبداً.

وليثبت ذلك جذبها إليه وضمها بشدة، ليظهر لها مبلغ ما يشعر به نحوها.

تجاوب جسدها معه على الفور. ومع ذلك، وكلما فكّرت في الاجتماع العملي السري، وجدت أنها عاجزة عن أن تكبح المرارة التي تملكها.

- هذا حسن تماماً، لأنني لا أريدك أن تظن أن بإمكانك أن تنكث العهد الذي بيننا.

- ولماذا أفعل ذلك، يا جميلتي؟

ومال إلى الأمام يداعب وجنتها ويرد خصلة شعر عن وجهها.

- حسناً، بعد أن حصلت على ما تريد، أصبح بإمكانك...

- أتظنينني سأنكث بعهدي لك... أنني سأتراجع عن كلمتي لك؟

واحتد صوته بشكل خطر والتهبت عيناه فيما أضاف: «ألا تعلمين أنني أفضل الموت على ذلك؟».

يفضّل الموت... أدارت هذه الكلمات رأسها. وانتفض قلبها الأحمق الساذج لسماعها، ظناً منها أنها قد تمثل بالنسبة إليه، أكثر من

مجرد زوجة يقتنيها في بيته كجزء من صفقة مالية. ولكن ما إن تشكّل هذا الوهم الضخم في ذهنها، حتى شتته كلمات رامون التالية: «إذا ما أعطيت كلمتي فهي كلمة شرف لا أرجع فيها أبداً. كما أنّ أباك ليس أحمق. فهو لن يضع توقيعه على العقد حتى أضع أنا توقيعي على وثيقة الزواج. وهكذا، لا حاجة بك إلى الخوف من أن أهرب منك قبل الزواج. معرفتي بما أريد من الحياة تمنعني من القيام بأمر كهذا».

- لأنك ترى الأمور كلها مجرد ترتيبات عمل.

أكسبها قولها هذا نظرة تأنيب أخرى من تينك العينين الفولاذيتين اللتين اختفى منهما كل أثر للهزل، لتصبحا كالثلج كآبة وبرودة: «أنا لا أعاشر شريكة عمل، يا «دونا مدرانو»، ولم أفعل هذا قط، ولا أنوي البدء بهذا الآن».

- لماذا إذن؟...

لكن وحدتهما لم تدم بعد أن رأتهما مرسيدس فجاءت إليهما مع كاسي، وشدّته زوجة أخيه إلى باحة الرقص فذهبت فرصة الكلام.

ولم يستعيدا هذه الفرصة مجدداً، فقد تجدد الرقص، ثم تناول الكل وجبة الطعام وألقيت خطب رسمية. وشعرت إستريللا وكأنها أمضت وقتها في الرّد على التهاني بما استطاعت من حماسة، راجية أن تبدو ابتسامتها صادقة وليست مرغمة متصلّبة.

ومع نهاية السهرة، كانت تشعر بالألم في فكها وخدّيها بالإضافة إلى صداع شديد بسبب محاولتها تمثيل دور الخطيبة السعيدة المتحمسة، بينما التشوّش والفوضى يعتملان في داخلها ما جعلها تشعر بأنها لن تعود قط إلى التفكير بوضوح. لقد رقصت مع رامون، وأمضت دقائق طويلة بين ذراعيه، فقد أثارت تلك الدقائق حواسها ما جعلها تتشوّق إلى انتهاء السهرة ليختلي كلٌ منهما بالآخر.

لكن رامون أصبح فجأة رجلاً مختلفاً للغاية. بقي هو نفسه بالنسبة إلى المدعوين بابتسامته العريضة وحديثه السلس، إذ راح يضحك ويروي النكات ويمثل دور الخطيب السعيد المزهو حتى الكمال. ولكن أي شخص حساس لأي تغير في طباعه أو نبرات صوت أو مظهره، مثل إستريللا، سيدرك أنه لم يكن موجوداً هناك حقاً. كانت عيناه غامضتين بشكل غريب، لا تعكسان الحرارة التي ظهرت في صوته وفي الابتسامة الواسعة المتألقة على فمه. وعندما لمسها بدت لمسته وكأنها لرجل غريب. لا بل أسوأ من ذلك، فقد شعرت وكأنها بين ذراعي مخلوق غريب، يتصرف من كافة النواحي كأي رجل حقيقي لكنه، وبشكل ما، تنقصه الروح.

أمسك بها ورقص معها، لكنه لم يلمسها حقاً. أجرى معها حديثاً تافهاً مؤدباً، واستمع إلى أجوبتها وأجاب عنها، لكن لم يبد عليه أنه كان يسمعها حقاً. ورغم أنه نادراً ما تركها طوال ما تبقّى من السهرة، إلا أنها لم تشعر بأنها مع رامون الحقيقي بل مع ظل شاحب لرجل كان خطيبها، وزوجها المنتظر، زوج لم تكن تعرفه حقاً من أية ناحية على الإطلاق.

كما أنّ شوقها إلى البقاء معه وحيدة لم يتحقق... فما كادا يودعان آخر المدعوين حتى أشار رامون بيده فجاءت خادمة بمعطف إستريللا. وإشارة أخرى جاء على إثرها السائق الخاص، الذي بدا أنه كان ينتظر أمره هذا.

- لكنني...

حاولت إستريللا أن تحتج لكن رامون لم يستمع إلى محاولتها لإقناعه بالعدول عن ذلك، واكتفى بالقول أنه وعد أباها بأن يعيدها إلى بيتها آمنة، وأنه متعب للغاية فلا يستطيع أن يقود سيارته ليوصلها بنفسه.

لذا سيرسلها مع سائقه الأمين.

- ظننت... أنا لست جاهزة بعد للذهاب!

- إستريللا... أمضينا ليلة متعبة وأمامنا أسبوع حافل بالعمل استعداداً للزفاف.

كان صوته منطقياً لدرجة مخيفة، لكن ورغم رقته، كانت عيناه الباردتان وفكه الحازم تعبر عن رسالة مختلفة تماماً. لمس خديها برقة، لكن نظرة إلى عينيه منعتها من عناقه، قبل أن تقول: «أنا لست متعبة».

- وأنا حريص على أن تبقي هكذا. يوم عرسنا أريد عروساً متألقة وليس عروساً شاحبة منهكة من قلة النوم.

- ولكن...

- إستريللا، ستذهبين إلى بيتك الآن.

لم يرفع صوته الذي بقي هادئاً فاتراً، ولكنه تكلّم بحزم قاس جعلها لا تجرؤ على الجدل. وحتماً لم تغامر بأن تقول إنها ترغب بعناقه.

- لا بأس، ما دمت مصرّاً.

ووقفت على أطراف أصابعها تطبع قبلة المساء على خده، ولكن من دون أيّ تجاوب منه. ولولا حرارة جلده، لظنت أنه يصفح نفسه بصفائح معدنية. كان بارداً وصلباً. حتى أنه لم يبادلها التحية بل تناول معطفها الفرو الطويل من الخادمة ولفه حول كتفيها وسوّاه حول عنقها: «تصبحين على خير، يا عزيزتي. أتمنى لك ليلة سعيدة».

وأمسك بذراعها يهبط معها الدرجات بسرعة إلى السيارة، وما كادت تصعد في المقعد الخلفي وتسوّي جلستها حتى أغلق باب السيارة وانتصب واقفاً.

مع ذلك، حاولت أن تلوّح له بيدها وترسل له قبلة مع الهواء، لكنه

أخذ يدقّ على زجاج نافذة السائق يأمره بالانطلاق، ثم تراجع خطوة إلى الخلف وراح ينظر بوجه جامد إلى السيارة وهي تبتعد. وبعد ثانية، استدار يصعد الدرجات ليتوارى في الداخل.

بعد ذاك، رأته مرات عدة، كان يبدو دوماً مهذباً للغاية واجتماعياً، لكنه يحرص على أن لا يختليا ببعضهما البعض.

وقد توجّست إستريللا لهذا.

نظرت إلى الخاتم الماسي الرائع المتألق في إصبعها، ثم لمسته برقة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع بينما بدا التفكير على ملامحها.

أي رامون ستكون معه الليلة؟ العاشق المتلهف المحموم المشاعر الذي لا يستطيع الابتعاد، أم ذلك الرجل الهادئ المنعزل الذي أصبح عليه منذ حفل خطبتهما؟ لم تكن تعرف، فتوترت أعصابها واخذ قلبها يخفق بشدة.

وأخذت تدير الخاتم بتململ، كاشفة عن ضيقها وعدم ارتياحها.

- إستريللا!

كان هذا صوت مرسيدس يخرجها من المكان غير المريح الذي قادتها إليه تأملاتها، ما جعلها تنتفض مجفلة وقد اتسعت عيناها بذهول: «أنا... أنا آسفة... كنت بعيدة أميالاً».

فقالت مرسيدس ضاحكة: «وأنا أعرف أين. أتساءل عما إذا كان أخي يعلم كم أنت مجنونة بحبه».

- ماذا...؟

انتفضت وقد أصابتها صدمة، وحاولت أن تتكلم، لكن الكلمات ماتت على شفتيها، كما جفّ حلقها عندما أصابت كلمات مرسيدس وتراً حساساً فيها.

الحب...

هل قالت مرسيدس (الحب)؟

ودار عقلها وكأن تلك الكلمات صفعتها بعنف على وجهها، ولم تستطع أن تستجمع أفكارها لكي تركز على هذه الكلمة والمشاكل التي تحملها معها. المشاكل التي ستغيّر حياتها.

لم تشعر سوى بالامتنان عندما اختارت مرسيدس هذه اللحظة لتبحث عن حقيبة يدها، فلم تر كيف شحب وجه إستريللا وجحظت عيناها.

(أتساءل عما إذا كان أخي يعلم كم أنت مجنونة بحبه).

آه، فليسامحها الله، ما الذي فعلته الآن؟

١٠ - عروس قرمزية

قال جواكين لأخيه بابتسامة عريضة وهما يقفان أمام الهيكل في كنيسة القرية الصغيرة: «ستصل حالاً».

ثم اردف بعد لحظات: «من الأفضل أن تستمتع بآخر لحظات حريتك».

فضحك أليكس، أصغر أبناء جوان ألكولار الثلاثة معلقاً: «هذا ما يقوله رجل لم يكد يمضي شهر على زواجه. حتى أنا المتزوج منذ وقت طويل لا يمكنني أن أساند كلامه».

إنه يعني ذلك، كما أخذ رامون يفكر وهو يرى عيني أليكس الرماديتين الداكنتين تبحثان عن امرأة طويلة رشيقة ذات شعر بني هي الإنكليزية لويز التي تجلس على بعد أمتار قليلة، وطفلتها على ركبتيها. منذ عاد أليكس من زيارة له إلى انكلترا بصحبة لويز، لم يفترق الإثنان. والآن، توج مولد الطفلة ماريا حبهما.

جواكين أيضاً وجد السعادة في الحب بعد أن عاد إلى رشده أخيراً وأدرك أنه يحب كاسي بجنون، وهما الآن متزوجان وأول أطفالهما في الطريق. ولقد نضج جواكين، وتحوّلت علاقته الشائكة مع أبيه ورامون إلى أنس ولطف بعد أن استقر في حياته الجديدة. إدراكه أنه أصبح محباً محبوباً حوّله من رجل دعاه البعض (بالذئب)، إلى شخصية مختلفة تماماً.

واعترف رامون، بينه وبين نفسه، بأنه غيور فأخواه يعيشان حياة سعيدة كان يعتقد أنها مستحيلة. هذه الحياة السعيدة التي تمناها، ذات يوم، لنفسه.

كانت أمه ميتة، والرجل الذي ظنه أباه كان خشناً عدوانياً غير محب، ما جعله يتشوق إلى نوع الأسر التي نشأ فيها أصدقاؤه. فأقسم أنه، يوماً ما، عندما يصبح رجلاً، سيجد تلك الحياة، ويخلق نوع الحياة التي لم يعرفها قط، مع زوجة يحبها وتحبه.

لماذا يتزوج إستريللا إذن؟ لماذا يقف هنا اليوم مع أخويه، مرتدياً القميص التقليدي المخاط باليد والذي أصرت إستريللا على أن تخيطه بيدها ما أذهله للغاية؟

وسمع أليكس يقول: «عليّ أن أعترف بأنني مذهول. لطالما ظننت أنه إذا نجحت امرأة في جعلك تتزوج فهي بينيتا الجميلة. وإذا بك تعلن عن رغبتك في الزواج من امرأة لم نسمع عنها من قبل. ماذا حدث بحق الله؟».

- ما حدث هو إستريللا.

أجاب رامون بذلك مدركاً أنه لم يقل سوى الحقيقة. السماء وحدها تعلم كم من مرة طرح على نفسه هذا السؤال من دون أن يحصل على جواب مفهوم.

إستريللا التي ظهرت في حياته كشهاب مضيء نزل عليه من السماء، فلم يستطع التفكير بشكل سويّ منذ ذلك الحين. أما بينيتا، وهي أحب النساء اللاتي عرفهن إليه، حتى عرف إستريللا، فلم تعد تخطر له الآن في بال. ولم يعد يستطيع أن يستحضر ملامحها في ذهنه حتى لو حاول ذلك... وهذا لا يعني أنه حاول ذلك، فأفكاره مشغولة دوماً بالمرأة التي سيتزوجها اليوم.

قال جواكين: «كانت مرسيدس تقول دوماً إنك إذا وقعت في الحب، ستقع بقوة بالغة، لكنها كانت واثقة من أنك ستمضي وقتاً طويلاً في البحث حتى تجد المرأة التي تعجبك للزواج».

فقال رامون بهدوء: «مرسيدس تظن أنها تعرف الكثير».

وكان يأمل أن يبدو كلامه مقنعاً.

لا بأس، فقد وقع بقوة فعلاً... ولكن ليس في الحب. لقد وقع رأساً على عقب في الرغبة العارمة ولم يستطع أن يتحرر من ذلك القيد الذي قيدته إستريللا به، كما أنه ليس واثقاً من أنه يريد ذلك أيضاً.

لكن هذا الشعور ليس حباً. إنه شعور آخر تماماً، فهو لم يعد يؤمن بالحب، لقد فعل ذلك ذات مرة، عندما كان أصغر سناً، ولم يتبدد الوهم الذي غشا عينيه إلا مؤخراً، عندما اكتشف أنه ليس ابن أبيه، وأن أمه خانت أباه في بداية زواجهما، فكان هو النتيجة. وتابع يقول: «أختنا الصغيرة بحاجة إلى أن تعرف ما هو الحب قبل أن تعطي رأيها في كيفية تأثيره في حياة الآخرين».

فقال أخوه الأكبر: «ربما لن يطول هذا. فقد أصبحت مؤخراً شاردة الذهن إلى حد ميؤوس منه، لعل هناك من شغلها».

عندئذ، قال أليكس بورع زائف: «إذا حصل هذا، فليرحمنا الله، لأن مرسيدس محمومة العواطف، أتتذكر عندما جئت إلى هنا لأول مرة، كيف ظنت أنها تحبني، قبل أن تدرك أنني أخوها؟ إذا حدث ووقعت في الحب حقاً، فهي تغطس حتى العمق».

فتمتم جواكين بجفاء: «يبدو أن هذا ميزة في أسرتنا ولكن بعضنا يحتاج الى وقت طويل ليدرك الحقيقة».

وبعضنا يبحث عن تعويض في أمور أخرى، كما أخذ رامون يفكر. لم يشعر بأن أخويه، وهما الواثقان من مشاعرهما ومشاعر زوجتيهما،

سيفهمان الطريقة التي يتصرف بها... والأسباب التي أحضرته إلى هنا اليوم.

لكن شيئاً واحداً كان صحيحاً... لقد غطس منذ البداية... وهو يزداد غرقاً مع كل يوم يمرّ. هذا هو سبب وجوده هنا اليوم وليس أيّ صفقة لعينة، أو لأن إستريللا طلبت منه ذلك، أو بسبب أي إرث ارستقراطي قد يرثه أولاده في المستقبل.

إنه هنا لأنه لم يستطع البقاء بعيداً. بسبب كل ما أراده من وراء هذا الترتيب، وكل ما يستطيع الحصول عليه نتيجة له، إلاّ أنّ إستريللا هي ما يريده أكثر من أي شيء آخر.

- إنها هنا.

لم يكن واثقاً من أنّ أحداً قال هذا، كل ما يعرفه هو أن الاضطراب الخفيف والحماسة والاهتمام في الناحية الأخرى من الكنيسة تعني أن إستريللا، عروسه التي توشك أن تصبح زوجته، وصلت وأن فرصته الأخيرة لتغيير رأيه، هي الآن.

كان مدهشاً ألاّ يرغب في تغيير رأيه. شعر باقتناع عميق هادئ بأن هذا ما يريده، وهذا ما يناسبه حالياً... وسيدع المستقبل يهتم بنفسه.

- من هنا نبدأ.

هذه المرة كان المتكلم جواكين الذي أخذ يتفحص مظهر رامون، مسوّياً ربطة عنقه، ثم ضربه على كتفه: «هذا وقت المباهاة، يا أخي».

وكلمة (أخي)، هي التي هزته. بعد كل التوتر الذي ساد علاقتهما حتى الآن... التوتر الذي لم يكن منه مناص، نظراً لنظام وتقاليد الأسرة، كلمة المودة هذه والابتسامة العريضة التي صاحبتها جعلت ذهنه يدور لحظة. راحة، بهجة، عرفان لجميل، مشاعر تدفقت فجأة في عروقه ما جعله عاجزاً عن تحديد مشاعره لدى وصول العروس.

تمتم أليكس بصوت منخفض: «آه، يا إلهي...».

كان هذا ما تناهى إلى مسامعه في البداية. وحمل صوته عدم تصديق ذاهل، ممزوجاً بالسرور والتسلية ما أعاده إلى الواقع بسرعة.

- ما هذا؟ رامون؟

تعاظمت التمتمة والهمس من خلفه، وارتفع الصوت متقدماً نحوه وكأنه موجة، ثم ازداد علواً حتى أصبح من الصعب إغفاله.

لم يعد رامون يستطيع الوقوف عند المذبح وهو يدير ظهره إلى الموجودين في الكنيسة. أراد أن يلتفت، أن يرى.

أول ما تبادر إلى ذهنه هو: يا إلهي... كم هي جميلة! مجرد النظر إليها حبس أنفاسه، وجعل رأسه يدور بشكل خطر.

كانت بالغة الجمال والروعة. وما إن رآها حتى تجاوب جسده بشكل مثير، مما جعل من وجوده في هذا المكان عند درجات المذبح أمراً غير ملائم.

كانت وحدها، بعد أن رفضت أن يقودها أبوها ليسلمها إلى العريس حسب التقاليد. لم تضع على رأسها غطاءً أو نقاباً، بل رفعت شعرها الأسود الفاحم اللامع على رأسها ونثرت عليه أزهاراً بيضاء... بدا وجهها شاحباً لكنه حازم، كما بدت عيناها أكبر وأشدّ سواداً من أي وقت مضى. حالما التفت اشتبكت تينك العينين الواسعتين بعينيه تراقبانه بإمعان بينما زحف بعض اللون إلى وجنتيها العاجيتين.

طريقة رفعها لشعرها عالياً، أبرزت عنقها الطويل الجميل المطوق بسلسلة ذهبية تتدلى منها نجمة ماسية تماثل خاتم الخطبة. أرسل إليها هذه السلسلةالليلة السابقة كهدية العريس إلى عروسه. كانت النجمة مستقرة عند أسفل عنقها ويكشف عنها فتحة عنق ثوبها المربعة، هذه الفتحة المربعة التي كانت الشيء الوحيد الذي أخبرته عنه بالنسبة إلى

ثوب زفافها.

فتحة عنق مربعة لثوب طويل من الحرير... وانخفض بصره ليرى ما كانت ترتديه، ثم عاد ينظر إلى وجهها مصدوماً: «آه... إستريللا».

هتف باسمها بصوت خافت وضحك ضحكة ذاهلة مزهوة حائرة: «آه، يا حبيبتي إستريللا».

(أبي ممتن جداً لأنه سيتخلص من ابنته القليلة الحياء وهو يظن أنك رجل رائع لأنك ستأخذني من يده بالرغم من سمعتي المخزية كامرأة فاسقة).

هذه الكلمات التي قالتها إستريللا له أثناء حفلة الخطبة وقد عادت الآن إلى ذهنه عالية واضحة.

لقد سمع الكثير من الكلام والأقاويل في القرية. عمتها العجوز المغرمة بالفضائح وأبوها أدليا بتعليقات عما ينبغي أن ترتديه في عرسها. وقالا إن الأبيض التقليدي قد لا يكون مناسباً فاقترحا لون القشدة، أو ربما الأزرق...

سمعت إستريللا كل هذا فاحتفظت بخطتها سراً، وها هي تسدد للجميع هذه الضربة.

كان ثوبها طويلاً يصل إلى الأرض كأثواب الزفاف التقليدية كلها. وكان مصنوعاً من أنعم أنواع الحرير، ومن الجمال والأناقة كما توقع أن يكون كل ما تختاره إستريللا. قسمه العلوي الضيق بفتحة العنق المربعة، يتناقض مع العصابة الحريرية، والذيل الطويل المنحدر من خصرها النحيف. كان ثوب زفاف تقليدياً في كل شيء سوى شيء واحد.

فما من ثوب زفاف تقليدي يخاط من مثل هذا اللون الفاقع الجريء. ما من ثوب زفاف بمثل هذا اللون القرمزي المذهل بجماله.

زوجتي القرمزية...

زوجتي الجريئة الوقحة المتألقة إستريللا... لم يكن رامون واثقاً مما إذا نطق بهذه الكلمات أم أنها بقيت في ذهنه فقط، كل ما يعلمه أنه لا يستطيع الوقوف جامداً، وهو يرى كيف ترددت فجأة، وقد ظهر عدم الثقة في عينيها.

ومن دون وعي منه لما يفعل، ترك مكانه أمام المذبح وتقدم نحوها بخطواته الواسعة، ماداً يديه ليمسك بيديها. وعلى الفور، تبدد عدم الثقة والتوجس عن وجهها، فاتسعت ابتسامتها الساحرة المذهلة، وأمسكت بباقة الزهر بيد وفيما مدّت يدها الأخرى إليه.

- زوجتي القرمزية، زوجتي القرمزية الرائعة الجمال.

نطق، هذه المرة، بهذه الكلمات ولكن بصوت لم يسمعه سواهما، ثم رفع يدها إلى شفتيه يقبلها قبل أن ينتقل إلى جانبها، جاعلاً يدها تحت إبطه وهو يبتسم لها بدوره. رأى لمعان الدموع في عينيها وهي تلتفت إليه فأدرك أنها، ورغم كل الشجاعة التي جعلتها ترفع رأسها عالياً وتسير قاطعة ممر الكنيسة مزهوة، والأعين مسلطة عليها، لم تكن واثقة من نفسها كما كانت تبدو. كانت شجاعة وحازمة لكنها في أعماقها خائفة نوعاً ما.

فضغط على يدها الرقيقة التي بدت أصابعها بيضاء مقارنة مع كم سترة بذلته السوداء الرسمية. وابتسم لها مرة أخرى وهو يرى ثقتها تزداد.

سألها إن كانت مستعدة فأومأت بحزم هذه المرة. لم يكن هناك تردد أو شك في وجهها، فتابعا السير معاً نحو الكاهن المنتظر.

شعرت إستريللا وكأنها فوق السحاب، لا تكاد قدماها تلمسان الأرض وهي تقترب من المذبح، ورامون بجانبها بجسمه الطويل

الجبار، فيما ذراعه تسندها ويده تغطي يدها.

كانت قد وصلت إلى الكنيسة متوترة الأعصاب بعد أن أصابت كلمات مرسيدس وتراً حساساً جاءت كوميض برق كشف لها ما لم تره أو تفهمه من قبل.

(أتساءل إن كان أخي يعلم بمدى حبك الجنوني له).

لم تستطع أن تمحو هذه الكلمات من ذهنها ورغم كل جهودها لكي تلهي نفسها... ولكي تفكر.. في أمور أخرى، إلاّ أنها كانت تعود دوماً إلى تلك الكلمة القوية الفعالة. الكلمة التي كانت من القوة بحيث هزت عالمها وقلبته رأساً على عقب، كلمة الحب...

حاولت أن تنكر ذلك، حاولت أن تثبت خطأ ذلك. أن تؤكد أنّ هذا خطأ، خطأ، خطأ. لكنها لم تفلح. وبدلاً من ذلك رأته صواباً، صواباً، صواباً رغم أنه لم يكن لديها فكرة عن كيفية حدوث ذلك.

لكن ما إن بدأت مسيرتها الطويلة المثيرة للأعصاب في ممر الكنيسة، حتى أدركت أن هذا حقيقة. كل خطوة تقرّبها من حيث وقف رامون، قوياً مزهواً في بذلته الرسمية الرائعة التفاصيل، وبالتالي تقرّبها من مصيرها.

لقد وقعت في الغرام بجنون وتهور، ووقعت بشكل نهائي مع رامون داريو، العريس الذي اشتراه لها أبوها.

لم تكن مشاعرها نحوه تشبه ما شعرت به نحو كارلوس. كان الشعوران مختلفين إلى درجة أصبح عليها أن تعترف بالحقيقة. ما شعرت به نحو كارلوس لم يكن حباً على الإطلاق... لم يكن أكثر من افتتان أعمى، وفقدان للعقل. لقد أحبت فكرة الحب ذاتها، فظنت أنها تحبه. ولكن، وبالمقارنة مع مشاعرها القوية الغامرة نحو رامون، وجدت أن عواطفها المشبوبة نحو كارلوس أشبه بمطر يتساقط لفترة

قصيرة ثم يتوقف من دون أن يترك أثراً.

أما شعورها نحو رامون فكان مختلفاً للغاية. لقد تجذرّ في قلبها وأصبح جزءاً من دمها وروحها. لا يمكنها أن تستأصله وتبقى حيّة. فهي لا وجود لها، ولا مستقبل لها من دونه.

هذه الفكرة الأخيرة جعلتها تتعثر وتتباطأ في خطواتها، ولم تعرف ما إذا كان بإمكانها أن تستمر، فقد ارتجفت ساقاها، وسرت في جسدها رعشة ذعر باردة. ولو كانت لديها القوة لاستدارت على عقبيها وفرّت هاربة من الكنيسة.

لكن، في هذه اللحظة، التفت رامون ونظر إليها، لا بل فعل أكثر من ذلك، إذ سار نحوها مادّاً يده له. لقد أخذ أصابعها في يده القوية الصلبة، والدافئة المواسية إلى حد غير محدود.

(يا لحلوتي! حلوتي الرائعة).

ربما لم يكن هذا كثيراً، وحتماً لم يكن هذا ما كانت تحلم به. لم يكن ذلك تعبيراً عن الحب، لكنها لم تتوقع ذلك. وعندما قارنت تلك الكلمات التي نطق بها بصوت عميق أجش، والخاتم الذي يمثّل الالتزام الكامل، بالإطراء والمديح الزائف الذي كان كارلوس يغدقه عليها، عرفت ما الذي تفضله وما الذي تصدقه أكثر.

عندما ابتسم لها، شعرت بأنها مستعدة للذهاب معه إلى أي مكان. إذا ما تملكها الشك من قبل، فهي تعرف الآن أنها تحبه حقاً.

إنها تعرف لماذا يتزوجها. إنهما يبدآن حياتهما معاً لأسباب خاطئة، بسبب المال وليس المشاعر. كان زواجهما زواج مصلحة، لكن هذا لا يعني أن من المفروض أن يستمر على هذا الشكل، فهو أيضاً زواج مشاعر محمومة... وطالما بقيت مشاعرهما بهذا الشكل، فإن لديهما ما يربطهما معاً.

وإذا لم تستغل هذه المشاعر، فهي غبية.

(طالما بقي هذا الشيء بيننا، سنبقى معاً، حتى نحصل جميعنا على ما نريد).

هذه هي الكلمات التي قالها رامون. حسناً، لقد نال هو الآن ما يريد من مال... أو سيناله في نهاية هذا النهار. لكنه يريدها أيضاً. وقد أوضح هذا ورغبته فيها هي ورقتها الرابحة. وما دامت رغبته فيها قائمة، فسيبقيان معاً.

وما داما معاً، فثمة فرصة ليكبر شعوره نحوها فلا يبقى مجرد مشاعر محمومة متقدة كما اعترف بنفسه. وستحرص هي على الحفاظ على تلك المشاعر. ستغذيها، وتراقب نموّها، وتدعو الله أن يقيّده إليها بتلك المشاعر المحمومة.

هذا يكفي كبداية. ما تطلبه الآن من الله هو أن يمنحها الوقت والحظ، لتحوّل هذه المشاعر إلى ما هو أكثر بكثير.

هذه الفكرة جعلتها تحتمل ذلك الاحتفال الطويل، وحفل الاستقبال. لا يمكنها أن تفعل شيئاً الآن، لكن الليلة، وعندما يصبحان وحدهما في الڤيلا المشرفة على البحر على شاطئ «كوستا براڤا»، التي سيقضيان فيها أول ليلة من شهر عسلهما، فستبدأ في تشكيل تلك السلاسل التي ستقيده في سرير الزوجية.

كانت تعلم أن خطتها ستنجح.

وستنجح! هذا هو المفروض.

إذا لم تنجح، فسيضيع هذا الزواج. إذا لم تستطع أن تغيّر الرغبة التي يشعر بها رامون نحوها إلى شعور أعمق وأقوى، فلا بدّ أن يأتي يوم تنطفئ فيه شعلة الرغبة تلك. ومن دون حب، لن يبقى لها شيء، وستفقده. سيتركها ويرحل عنها إلى الأبد.

لديها الوقت، وهي ستستغل هذا الوقت بأفضل الطرق التي تعرفها.

ابتداءً من الليلة.

www.elromancia.com

١١ - أسرار واعترافات

الحمد لله على أن الاحتفال شارف على الانتهاء، هذا ما حدث رامون به نفسه بارتياح بالغ.

إذا ما أمضى ساعة أخرى، لحظة أخرى، في تبادل الأحاديث المؤدبة، وتقبّل التهاني، والاصغاء إلى النكات عن فقدان الحرية، وعما ستكون عليه الليلة القادمة، فسيحل الفجر.

هذا لا يعني أنه لم يستمتع بحفل الاستقبال، بل فعل في البداية. استمتع بوجوده مع أسرته، وبالرقص مع إستريللا، ومع كاسي ومرسيدس، ومع إستريللا مرة أخرى. لكن هذا يكفي وقد تعب من استعراض نفسه اجتماعياً.

إنه يريد أن يكون وحده، مع زوجته، على انفراد.

زوجته!

ونظر إلى آخر القاعة الفسيحة فرأى إستريللا، متألقة في ثوبها القرمزي المذهل الجمال. كانت تضحك لشيء قالته مرسيدس، وقد توهجت وجنتاها. لم تكن تشبه تلك المخلوقة الشاحبة المتوجسة التي رآها في الكنيسة، إستريللا الشجاعة الحازمة المصممة على التمرد، والتي لم تستطع رغم ذلك أن تخفي عدم ثقتها.

- تبدو رائعة، أليس كذلك؟

كان أبوه واقفاً بجانبه، وعيناه البنيتان العميقتان مسمرتان على إستريللا، هو أيضاً. لكن شيئاً ما فيهما لفت انتباه رامون، وجعله ينظر

بإمعان أكثر.

كان صوت جوان ألكولار أجش قليلاً وفي عينيه لمعان غير عادي، لمعان لو رآه في عيني رجل آخر لظن أنها دموع.

أو لعلها كذلك لو أن أباه من النوع الذي يكشف عن مشاعره، كما حدّث رامون نفسه. في الواقع، كان جوان على العكس من ذلك تماماً. فنادراً ما كان يفضي بمكنونات نفسه إلى أحد، حتى إلى أسرته. إنما لطالما نجحت مرسيدس في تعديل مزاجه بظرفها. كان الأمر على هذا الحال منذ اجتماعه به لأول مرة. في ذلك النهار، منذ سنوات كثيرة، دخل رامون إلى مكتب جوان ألكولار وسأله ما إذا كان ما علمه حقيقة، وهو أن جوان أبوه وليس روبين داريو الذي توفي حديثاً، والذي لطالما اعتقد أنه ابنه.

- إنها تذكرني بهونوريا.

أدار رامون رأسه مصدوماً، لا يريد أن يصدّق ما يسمع. فهونوريا هي زوجة جوان الشرعية، والدة مرسيدس وجواكين. ودهش وهو يرى أباه يتحدث عنها الآن، بينما لم يفعل ذلك قط من قبل.

وسأله بحذر: «هل كانت تشبه إستريللا؟».

- كثيراً.

أخذ جوان جرعة وافرة من كأس العصير كأنه يشجع نفسه على الاستمرار: «لا ترتكب الأخطاء التي ارتكبتها أنا، يا رامون».

- الأخطاء؟

أدرك رامون أن صوته أصبح حاداً، وتساءل عما إذا كان ذلك سيعيد أباه إلى صمته المعتاد، ولكن بدا أن جوان يريد أن يفتح قلبه قليلاً: «لقد أحببت امرأتين إلى أقصى حد، وفقدتهما، هما الإثنتين».

- أمي...

فأومأ أبوه باكتئاب: «كنت أحب مرغريتا حباً جماً. لكنني كنت صغير السن وأحمق. قلت إنني لا أريد التزامات الزواج فحطمت قلبها. ولهذا السبب تزوجت روبين داريو».

أخذ رامون يتساءل عما جعل أباه يذكر أمه ربما للمرة الثانية فقط في حياته. لقد ذكر اسمها! لماذا الآن؟

- لكنك رأيتها بعد ذلك؟

طرح هذا السؤال بخشونة فأجاب الأب: «مرة واحدة فقط. التقينا مصادفة بعد سنوات، وكنت حينذاك متزوجاً من هونوريا. وكان عمر جواكين سنتين...».

وتأوه من أعماق قلبه: «لا شيء تغيّر. كانت لا تزال أجمل النساء اللاتي رأيتهن... امرأة أحلامي... وكانت وحيدة، ضائعة. لم يستطيعا، هي وداريو، أن ينجبا أطفالاً. وكان زواجهما فاشلاً. لست فخوراً بما حدث. فقد أمضينا أسبوعاً معاً بينما كان روبين في أميركا، أسبوعاً رائعاً. لكننا كنا نعلم أنه لن يدوم. لم يستطع أي منا أن يعيش مع الشعور بالذنب... بعد أن فكّرنا في ما نفعله بالآخرين... وهكذا انفصلنا».

وصمت ثم أردف وهو يغص بريقه: «ثم ولدت أنت بعد ذلك بتسعة أشهر».

- وماتت أمي قبل أن أتم الشهر الثاني من عمري.

لم يكن يتذكرها. رأى صوراً لوجهها فقط.

قال لأبيه بمرارة ظاهرة: «لكنك سرعان ما نسيتها، واتخذت لنفسك عشيقة. لأن أليكس أصغر مني بسنة واحدة».

فردّ الأب بخشونة: «لا. لم أكن بذلك الشكل، لكن الأمور أفلتت مني، ولم أعد أدرك... لم أعد أهتم بما أفعل. وأثناء رحلة عمل إلى انكلترا، رأيت امرأة، مدبرة منزل زرته. كانت تشبه أمك بالضبط... تشبه مرغريت حين تقابلنا لأول مرة وكانت ليلة واحدة، حتى أنني لم أعلم أنها حملت. إلى أن جاء إليّ أليكس».

- ثم من أيضاً؟

كانت إستريللا قد أنهت حديثها ثم أخذت تنظر في أنحاء الغرفة تبحث عن شخص ما. وعندما نظر إليها، رأته فابتسمت بطريقة أدارت رأسه، وتقدمت نحوه، بينما كان أبوه يجيبه: «من هي المرأة الأخرى التي أحببت؟ من تظنها؟ هونوريا، زوجتي، ووالدة جواكين ومرسيدس».

- لكنني سمعت أن زواجكما كان زواج مصلحة.

- كان كذلك في البداية. لم أكن أدرك ما أفعل.

- إذن، عليك أن تتحدث عن ذلك مع جواكين.

- فعلت ذلك يوم عرسه. وهو الذي طلب مني أن أخبرك أنت أيضاً.

- هو الذي طلب منك ذلك؟

كانت إستريللا قد اقتربت. وبعد لحظة ستنضم إليهما، مجرد النظر إليها يجعل التركيز مستحيلاً.

- أنت مثلي يا رامون. وجواكين يعلم هذا. نحن نريدك أن تكون سعيداً.

- وأنا كذلك...

وفجأة، أحسّ بحلقه يجفّ بشكل مؤلم حتى أنه لم يستطع أن ينطق

آخر كلمة.

قال هذا ببطء وهو ينظر إلى جسد زوجته الرائع: «ما هي أخطاؤك التي تريدني أن أتجنبها؟».

- لم أمنح ما يكفي. أخذت ما أردت، لكنني لم أمنح أياً منهما الالتزام الذي كانتا بحاجة إليه، حتى فات الأوان.

- حسناً، ليس عليك أن تقلق...

وبسرعة، قطع كلامه عندما وصلت إستريللا إلى جانبه، متأبطة ذراعه كما فعلت في الكنيسة. شعوره بلمستها جعل قلبه يدق بعنف كما أفقدته رائحة عطرها رشده.

سألت إستريللا بفضول هادئ: «ليس عليه أن يقلق على ماذا؟».

أجاب رامون بسرعة خوفاً من أن يجيب جوان بشيء مربك: «أن يقلق علينا، يظن أبي أن علينا أن نغادر الآن، كيلا نصل إلى القيلاّ في منتصف الليل».

ونظر إلى وجهها المرفوع إليه، ثم مرّر إصبعه على خدها وعلى فمها الممتلئ: «وهذا رأيي أنا أيضاً، لقد حان الوقت لنبدأ حياتنا الزوجية معاً».

- وأنا موافقة.

شيء ما في صوتها وابتسامتها بعث الرغبة في كيانه، فأدرك أنه سيُجن إذا لم يختلِ بها. وارتاح عندما سمع إستريللا تضيف: «عليّ أن أغير ملابسي للسفر، ثم أصبح تحت أمرك».

تحت أمره؟ يا إلهي... أتراها تدرك ما فعلت به هذه الكلمات والطريقة التي نطقتها بها؟ كان مستعداً أن يراهن على أنها تدرك ذلك، وهذه الفكرة جعلت دقات قلبه تتسارع.

لو لم يكن يعرفها جيداً، ولو لم تكن تحت نظره طوال النهار، لأقسم على أن شيئاً ما حدث لها... شيئاً غيّرها، وجعلها امرأة مختلفة جداً.

- اذهبي وغيري ملابسك إذن.

ثم لم يستطع أن يقاوم رغبته في معانقتها عناقاً قوياً سريعاً. قوي بسبب قوة مشاعره، وسريع لخوفه من ألاّ يتوقف بعد ذلك، خاصة وهي تستجيب له بهذه السرعة والروعة.

وبشكل ما، استطاع أن يسيطر على نفسه ويغالب الإغراء، وقال بعد أن أنهى عناقه: «لا تتأخري إذن، أنا في انتظارك...».

كان قوله هذا تحذيراً ووعداً، وعلم أنها أدركت ذلك عندما اتسعت عيناها وعضت على شفتها السفلى. وفجأة، لم يحتمل أن يراها تتألم بأي شكل حتى ولو كان ألمها تافهاً تسببه لنفسها كهذه العضة.

تمتم: «لا تفعلي هذا...».

وعندما جمدت مكانها، وهي تحدق إليه، انحنى وعانقها ثم عاد يقول: «لا تفعلي هذا...».

فقالت وهي تتنهد بإذعان: «لن أفعل».

- إذهبي وغيري ملابسك، يا سيدة داريو، وبسرعة.

كان في وميض عينيها، واستدارة فمها، دماره، لكنها ابتعدت عنه خطوة أو اثنتين ما منحه مجالاً للتنفس قبل أن تنحني له تحيه... كانت انحناءتها ساخرة وهي تقول: «طبعاً يا سيدي، كما يأمر زوجي».

لم يستطع أن يحوّل نظراته عنها إلى أن وصلت إلى فسحة السلم فتوارت عن الأنظار، عندئذ أغمض عينيه وأخذ يتصوّرها في ذهنه لحظة. كل ما استطاع التفكير فيه هو اللحظة التي سيتمكن فيها من

الاختلاء بها...

الالتزام... يا لجهنم، نعم. لقد التزم بهذه المرأة. وقع في الفخ وأصبح سجيناً لا سبيل له إلى التحرر.

- يا سيد داريو... رامون.

تعالى صوت بجانبه، مخترقاً أفكاره ... فقطّب لسماع هذا الصوت الذي يعرفه.

- نعم، يا سيد ألفريدو؟

وفتح عينيه مكرهاً ونظر إلى حماه: «علينا أن ننهي بعض الأعمال».

- الآن؟

وكبح بجهد صيحة انزعاج وفروغ صبر كادت تفلت منه. الآن طبعاً، كما حدث نفسه... عليهما أن ينهيا الاتفاقية يوم زواجه من إستريللا.

- طبعاً. هل الأوراق معك؟

- إنها هنا.

ولمس الرجل المسنّ جيب بذلته الصباحية: «وثمة غرفة هناك...».

وأشار بيده مضيفاً: «حيث سنحصل على عزلة تامة».

- لا بأس إذن.

دفع رامون يديه في شعره، محاولاً أن ينظم أفكاره ويعيدها إلى العمل بعيداً عن الرغبات التي ما زالت متعلقة بها.

- فلنته من ذلك إذن.

أخذت إستريللا تدندن وهي تخلع ثوب الزفاف القرمزي الضيق وتضعه على العلاّقة. كانت الأغنية تعبّر بالضبط عما تشعر به.

شعرت أنها جميلة... جميلة جداً وفاتنة... كيف يمكن أن تشعر خلاف ذلك وهي ترى كيف كان رامون ينظر إليها، والمشاعر المحمومة تنضح من عينيه؟

ربما لا يمكنها بعد أن تتغنّى مرحة بأن شخصاً رائعاً يحبها، لكنها شعرت بدفق من الأمل والتفاؤل والثقة بأن الأمور ستصبح على ما يرام، في النهاية.

وأخذت ترقص سعيدة في الغرفة الفسيحة غير قادرة على كتم بهجتها. عليها أن تعبّر عن ذلك جسدياً، فأخذت تدور وتدور مبتهجة حتى انهارت مرهقة ورأسها يدور، على غطاء السرير الفسيح الحريري.

ستجعل رامون يحبها، وبإمكانها ذلك. بإمكانها ذلك حقاً، وهي تقسم على ذلك.

ولكنها لن تفعل إذا بقيت مستلقية هنا. وقفزت وأخذت تتأمل نفسها في المرآة. كانت زينة وجهها رائعة، ويكفي أن تزيد بعض الكحل، وتضع بعض أحمر الشفاه...

لم يستغرق ذلك سوى لحظات. بعدئذ، ارتدت بذلة أنيقة، بلون القشدة مع قميص مطرز وانتعلت حذاءً خفيفاً عالي الكعبين و...

لا.

جمدت يدها وهي ترفعها إلى شعرها. كانت قد قررت أن تنزع الدبابيس من شعرها، وتزيل الأزهار لتسدل خصلات منه على كتفيها. لكنها قررت الآن أن تترك شعرها كما هو، فسيكون أجمل وأقل إزعاجاً أثناء الرحلة. وعندما يصلان إلى الڤيلا، ستطلب من رامون أن يساعدها. فهي تعرف كم يحب العبث بشعرها. سيسرح شعرها

بأصابعه، ويعانقها أثناء ذلك...

سيكون ذلك عبثاً ولهواً خاصين بهما... جفّ فمها لهذه الفكرة، وتوتر جسمها حماسة.

لم تعد تستطيع الانتظار. اختطفت حقيبة يدها وخرجت من الغرفة لتهبط السلم عائدة إلى قاعة الرقص وهي ما زالت تغني.

كانت قد وصلت لتوّها إلى أعلى السلم، حيث يمكنها أن ترى القاعة المزدحمة من دون أن يراها أحد، عندما لفت انتباهها صوت باب يفتح إلى اليمين. وما رأته جمّدها مكانها.

رامون. رامون وأبوها كانا خارجين من غرفة جانبية. وهذا لا يمكن أن يعني سوى أمر واحد. هذا أشبه بعصر ذلك اليوم الذي أمضياه في المكتبة معاً وذلك منذ أسابيع قليلة، عندما...

لا، لا تريد أن تفكر في ذلك. وتمنت لو أنها لم ترهما.

لكنها رأتهما. وكل تمنيات العالم لا تستطيع أن تعيدها إلى ما قبل دقيقتين حين كانت في الغرفة. ليتها تأخرت لكي تسوّي سترتها، أو تضع المزيد من الماسكارا على أهدابها، فتخرج بعد ذلك وتنزل السلم وتصل إلى مقصدها من دون أن ترى شيئاً.

فلا ترى رامون وهو يخرج قبل أبيها ويدس مغلفاً طويلاً أبيض في جيب سترته الأنيقة الداخلي. ولا ترى أباها وهو يقفل قلمه الذهبي الفاخر قبل أن يعيده إلى جيبه.

لقد انتهى العرس. وتُليت العهود الزوجية، وأصبحا، هي ورامون، زوجاً وزوجة، فكان لا بدّ من إنهاء صفقة العمل، فوُقعت المستندات وتم تبادل الوثائق. لم يزعج نفسه بالانتظار حتى ينتهي يوم الزفاف، فأصرّ على أن يستلم المكافأة التي طلبها ثمناً لزواجه بها، منقذاً بذلك سمعتها. كان بإمكانه أيضاً أن يبرز الوثائق المالية في الكنيسة لكي

يوقعها ما إن يوقّع وثيقة الزواج.

شعرت بما يشبه طعنة الخنجر في قلبها، طعنة هي من القوة بحيث كادت تصرخ ألماً. لكنها، وبشكل ما وبجهد بالغ، استطاعت أن تتحكم بنفسها، فعضت على شفتها حتى شعرت بمذاق الدم في فمها.

إذن، ستجعلينه يحبك، أليس كذلك أيتها الحمقاء؟ همست بذلك في سرها، معترفة بأنها تركت نفسها تنسى الحقيقة المرّة وراحت تحلم في غرفة الطابق العلوي وتبني قصوراً في الهواء. وتابعت تحدث نفسها بأنها إنما تخدع نفسها لأنها لطالما عرفت ما يريد... وما يريده لا يتضمن الحب.

لم يرها أحد لحسن الحظ، لأنها بقيت مختبئة حيث هي، من دون حراك. بقيت هناك تنظر من خلال غشاء من الدموع، دموع غالبتها رافضة أن تدعها تنهمر.

ستعد حتى الثلاثين، ثم تنزل إلى القاعة. ثلاثون ثانية كافية تماماً.

واحد... إثنان...

ولكن، هذا غريب... لم تستطع أن تمنع نفسها من تأمّله. فرغم أنّ هذه اللحظة هي لحظة انتصاره، اللحظة التي ربح فيها كل ما يريد، كل ما تزوج من أجله... إلا أن البهجة لم تظهر عليه. بل على العكس تماماً. العبوس القاتم كسحب العاصفة هو الذي ظهر على ملامحه الرائعة، فعقد حاجبيه الأسودين، وترترت عضلات فمه وفكّه، حتى بدا خطراً كقنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة. يبدو أن شخصاً ما، ولعله أبوها، قد أشعل الفتيل، ووقف بعيداً عن الانفجار الذي يوشك أن يحصل.

أربعة عشر...

أم لعل الرقم أصبح عشرين؟

لقد نسيت العد تماماً. لم تعرف أين هي أو ماذا تفعل. ربما عليها أن تبدأ من جديد. أو...

- إستريللا!

لم تخطئ في معرفة هوية صاحب هذا الصوت أو عدم الصبر العنيف الذي يحمله. وأدركت متأخرة أن رامون انتقل إلى أسفل السلم ورفع بصره إليها. بإمكانه من هناك أن يراها بكل وضوح. ويبدو أنه أراد أن يعلم ماذا تفعل بتسكعها عند أعلى قمة السلم وكأنها نسيت كيف تنزل إلى القاعة.

- إستريللا!

بدا صوته أهدأ هذه المرة، ولكنه لم يكن بأقل عنفاً. النبرة التي استعملها أوضحت أنه غير مستعد أن ينتظرها بينما تقف هي في الأعلى ترتجف حيرة وتردداً.

وبعد أن غالبت الدموع التي غشّت عينيها من الاضطراب والصدمة، رأته يصعد أول درجة، ويمدّ لها يده بكل غطرسة السيد، يستدعيها إلى جانبه. لن يصعد ويمسكها بيده. كانت إشارته تعني أن مكانها هنا، إلى جانبه، ومن الأفضل أن تسرع لتكون معه. كانت تعلم جيداً أن التردد يعني التمرد، وأن التمرد أمر لا يُحتمل، فأسرعت تنزل السلم بقدر ما يسمح لها كعبا حذائها العالي من سرعة. وما إن وصلت إلى جانبه حتى مدّ يده الضخمة يمسك بيدها، بقبضة قوية جعلتها تشعر الضيق.

- أجاهزة أنت؟

كانت لهجته مختلفة جداً جداً عن تلك التي استعملها في الكنيسة. أكان ذلك منذ خمس ساعات فقط؟

- نعم...

كان هذا كل ما استطاعت قوله. وعندما قادها عبر القاعة، يجرها

تقريباً في إثر خطواته الواسعة الغاضبة، راحت أفكارها تدور، مجاهدة لتجد سبباً لتغيّر سلوكه هذا، رافضة أن تدرك ما هو واضح.

لقد تزوجها رامون ليحصل على شركة التلفزيون، وعلى الإرث الأرستقراطي لأولاده إذا ما أنجبا. والآن وبعد أن حصل على ما يريد، توقف عن ادعاء الميل إليها والاهتمام بها. ولابد أن تصرفاته كانت ادعاء وإلا لماذا تبدو ملامحه بهذا الشكل من التوتر والقسوة؟

إلا إذا استعمل أبوها بعض حيله ومكره، أو لعله تراجع عن الاتفاقية التي وعده بها.

ولكن إذا ما فعل أبوها ذلك فما هو مستقبل زواجهما؟ هذا إذا ما حصل بينهما زواج على الإطلاق.

لم تعرف شيئاً، فيما بدا واضحاً أن مزاج رامون لا يسمح له بأن يخبرها. والآن، يُفترض فيها أن تذهب مع هذا الرجل الغاضب، أن تمضي شهر عسل لأكثر من أسبوعين مع هذا الغريب الخطر. منذ دقائق فقط، كانت تتوقع كل ما هو بهيج ومثير. والآن تبدد هذا كما يتبدد الهواء من بالون مثقوب فتركها تشعر بالغثيان والإرهاق والذعر.

استطاعت بشكل ما، الوصول إلى الباب، رغم أن ساقيها كانتا غير ثابتتين. وبعد ذلك، استطاعت أن تبتسم وتحتضن وتقبل وتشكر المهنئين رغم عدم تمييزها لهم، لتدخل سيارة الليموزين من دون أن تتعثر أو يصطدم رأسها بالسقف.

وقبل أن تجد وقتاً لتستعيد توازنها جسدياً ونفسياً، وقبل أن تجد بعض الراحة، صعد رامون إلى المقعد الجلدي الناعم بجانبها، ودق على الحاجز الزجاجي بينهما وبين السائق. وكان كل ما قاله: «هذا حسن».

وعندما تحرك السائق بالسيارة، صفق الباب، وبقيا معاً في بقعة محدودة مسوّرة.

١٢ ـ آمال استحالت رماداً

- هل من خطب ما؟

إنها المرة الثانية التي توجه فيها إستريللا هذا السؤال إليه. الأولى كانت حين اتجهت بهما السيارة الفارهة الفخمة من المدينة نحو الشمال. حينذاك، لم يستطع رامون أن يجيب، إذ وجد صعوبة في الكلام، وحتى في النظر إليها.

قال بحدة: «لا تتحدثي، يا إستريللا. لا أشعر بميل إلى ذلك».

- هل أنت متعب؟

كان في صوتها ضحكة متشنجة جعلت الكلمات تخرج من فمها وكأنها من جهاز راديو غير مضبوط على المحطة المناسبة.

- نعم.

تمتم بذلك وهو يريح رأسه إلى الخلف ويغمض عينيه عن العالم الذي لم يعد يريد أن يراه.

لم يعرف أيهما أسوأ... الغضب البالغ الذي يقرع في صدغيه ما جعل التفكير السويّ مستحيلاً، أم شعوره بأنه خُدع واستُغل بدم بارد؟

وتابعت إستريللا بذلك الصوت الذي يثير الغيظ: «أناس كثيرون.. علينا أن نبتسم لهما جميعاً سواء شئنا أم أبينا».

لم يعرف ماسبب تلك النبرة في صوتها. هل هي الإثارة؟ الشعور بالانتصار لحصولها على ما تريد بالضبط؟ أم لعله الشك... فهي تريد

أن تعرف ما دار بينه وبين أبيها. هل من الممكن حقاً ألاّ تعرف؟

شكّ في أن الأمر هو توتر حقيقي في الأعصاب بالنسبة لاحتمالات المستقبل. فقد تحقق لها كل ما تريد... وذلك منذ البداية.

- إني أجد صعوبة في ذلك.

أجاب رامون من دون أن يستطيع إخفاء السخرية في صوته: «نعم. أنا واثق من أنك تشعرين بذلك».

فأحد أولئك الذين عليها أن ترغم نفسها على الابتسام لهم، هو رامون نفسه.

هل ستعرف ما هو شعوره حين تدرك أنها مثلت دور السمكة التي قُذفت إلى الشبكة... الشبكة التي أدرك لتوّه أنها اصطادته هو؟

لقد ظن أنها مختلفة وأنها ليست كما تقول الشائعات... لكنه كان مخطئاً إلى حد لعين... مخطئاً إلى حد أدرك معه أخيراً أي نوع من الحمقى هو. النوع الأعمى وضعيف العقل الذي نسي الدروس التي تعلمها عن النظر قبل أن يقفز، فقفز إلى الهوة مباشرة وهو مغمض العينين.

تباً لألفريدو مدرانو لأنه لم يصبر وجاء يأخذ نقوده على الفور. جاء للهدم في أشد اللحظات ضعفاً. تباً لنفسه لأنه لم يكن حذراً، ما جعله ضعيفاً، وذلك في الوقت الذي عليه فيه أن يجمع دفاعاته حوله، حريصاً على أن لا يدع شيئاً ينسيه حذره، وتباً تباً لإستريللا لأنها وجدت شرخاً في ما ظنه درعه الحصين!

لابد أنها استطاعت تحديد نقطة الضعف منذ البداية. رأتها وعملت عليها واستغلته بخبرة حتى ابتلع الطعم، ثم أخذت تدير رأسه ببطء... ببطء بالغ فلم يشتبه قط بما يدور حوله.

تباً لهما!

وبآهة غاضبة ثائرة، دعك جبينه، متمنياً لو يمحو الأفكار السوداء غير المرغوبة فيها ثم جمد مكانه عندما شعر بلمسة رقيقة على يده الأخرى الموضوعة على فخذه.

- لا!

صدرت هذه الكلمة عنه عندما تجاوب جسده معها لمجرد شعوره بأصابعها على أصابعه. كان يظن أن الغضب الذي يغلي في عروقه أحرق كل أثر للمشاعر لديه.

- لا.

عاد يقول ذلك بنبرة مختلفة تماماً هذه المرة أقرب إلى التوسل ما جعله يجفل في داخله.

- رامون، ماذا حدث؟

بدا عليها الاهتمام ما جعله يشعر بالاشمئزاز والرفض. ربما ما زال يناسبها أن تمثل دورها.

أصبحت رائحة عطرها أقوى الآن ما جعله يشعر بالغثيان فيما عشق هذا الصباح هذا المزيج الساحر والغامض من الزهور والبهارات. وأدرك الآن أنه سيكره هذا المزيج إلى الأبد، لأنه سيربطه دوماً بهذه اللحظة وما حملته من إحساس بالمرارة والغدر.

- كنت أعلم أنها ستتعقّل في النهاية...

تردد صوت ألفريدو في أذنيه ما جعله يشعر بالغثيان.

- كان الأمر مجرد طيش، لكن عندما أدركت أنها تخسر كل شيء... وأنني أعني ما قلت، حين هددتها بأنها إذا لم تتزوج زيجة لائقة، فلن تحصل على شيء... ولا قرش، تغيرت على الفور.

لم تذكر إستريللا قط التهديد بعدم توريثها. وحاول أن يسيطر على

رد فعله، رافضاً أن يدع الرجل العجوز يؤلمه، رافضاً أن يريه أن كلماته لمست وتراً حساساً. قال له بجفاء: «حسناً، لقد حصلت على ما تريد من هذه الاتفاقية، وابنتك امرأة متزوجة الآن».

فكان أن أومأ الرجل العجوز وعلى فمه ابتسامة انتصار: «وهي أيضاً حصلت على ما تريد. لا أحد رفض إستريللا كما رفضتها أنت. فعرفت أنها ستجعلك تدفع الثمن، وقد فعلت».

شعر رامون بالكراهية بحوه وقال: «أنا لا أدفع ثمن أي شيء! فقد تزوجتها باختياري».

- أنت تظن ذلك. ولكن في النهاية لم يكن لديك خيار. لقد اختارتك كما اختارت كارلوس بيريا بالضبط. (إما رامون داريو وإما لا أحد) هذا ما قالته وها هي قد حصلت عليك، تماماً كما فعلت بذلك المسكين الأحمق.

- رامون؟

تملكه الذعر وهو يسمع صوتها أقرب من قبل، ففتح عينيه بحدة لينظر في عينيها الحالكتين تحت حاجبيها المقطبين قليلاً. واحترق الإتهام على لسانه حتى كاد يبصقه في وجهها (كنت تعلمين أن أباك مصمم على أن يحرمك من الميراث) أو (كل هذا الكلام عن الحرية، وعن رغبتك بي كذب. كل ما يهمك في النهاية هو المال، لقد تزوجتني لتستغليني. لتحصلي على المال).

كان هذا هو الاتهام لها الذي لم ينطق به. لو علم ذلك منذ البداية لما كان الأمر بهذا السوء. لو كانت صادقة وصريحة لتدبّر الأمر، وربما لمضى قدماً فيه. لكنها لم تخبره الحقيقة... وبدلاً من ذلك كذبت عليه ومكرت وجعلته يشعر بالأسى نحوها، ثم استغلته وكأنه غزوة أخرى لها، بالطريقة نفسها التي استغلت بها كارلوس.

- هل لديك صداع؟

ها هي مرة أخرى... تلك اللمسة من أناملها على جلده مرة أخرى، وهي تمسّد التغضنات بين حاجبيه نتيجة تقطيبه، تغضنات لم يكن يدرك أنها موجودة.

كانت تميل عليه بحيث وصلت إليه حرارة جسمها، ورائحة عطرها. الرغبة في معانقتها والشعور بحرارة جسدها كادت تسحقه.

عند أسفل عنقها استقرت الماسة المتوهجة، فراحت ترتفع برقّة مع كل نفس تتنفسه، عاكسة أضواء السيارات التي تمرّ بهم.

لقد حلم بأن يسند رأسه إلى صدرها الليلة، أو أن يدفن وجهه فيه...

- لا...! نعم.

غيّر جوابه بسرعة حين رأى تراجعها الخفيف فعلم أنها اعتبرت إنكاره جواباً عن سؤالها.

عليه أن يتفاهم معها. ولكن ليس الآن، ولا سيما بوجود السائق الذي يخفي وجوده بصمت ديبلوماسي. إنه يرغب في أن يمزقها إرباً إرباً. شفهياً على الأقل، لكن عليه أن ينتظر حتى يصلا إلى الڤيلا ويصبحا بمفردهما حقاً.

- دعي ذلك... يا إستريللا. أنا متعب، فقد كان يوماً شاقاً.

يوم شاق، ولن ينتهي بالشكل الذي توقعه.

في كل مرة رفع فيها بصره ورأى إستريللا، كانت أفكاره تذهب إلى اللحظة التي سيغادران فيها قاعة الاستقبال. إلى اللحظة التي يصبحان فيها وحدهما حقاً، عندما يستطيع أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها حتى يغيبا عن الوعي من شدة الشوق.

لكن هذه الأفكار خطرت له عندما كان يراها بشكل مختلف تماماً. عندما كانت تبدو امرأة أخرى. امرأة يريدها...

وأجابت: «لا بأس».

بدا عدم سرورها واضحاً. لهجتها والوميض في عينيها أخبراه بذلك، لكنها استجابت لطلبه فابتعدت عائدة إلى مقعدها، شابكة ذراعيها على صدرها بينما بقية المقعد الخلفي تفصلهما.

وعلى الفور، ندم على تصرفه، فهو يريدها قريبة منه. أراد أن يضع ذراعيه حولها، إنما ليس بالطريقة التي ظن أنّ الأمور ستجري على أساسها. فهو لم يعد يثق بها. كما أن الغضب للطريقة التي استغلته فيها، ما زال يغلي في دمه، لكنه ما زال يريدها، مهما بلغت حماقة ذلك. الغضب وعدم الثقة وانقشاع الوهم لا يمكن أن تمنع ذلك. هو يعلم ما هي عليه في داخلها، لكن هذا لم يمنعه من التشوّق إلى المرأة فيها. فهي ما زالت رائعة، ما زالت مثيرة ... ومغرية للغاية.

كما أنها زوجته.

- تعالي الى هنا.

- ماذا؟

ظنت أنها لم تسمع جيداً. طلب منها رامون أن تبتعد عنه... وأن تذهب إلى جهنم... بحسب صوته والتعبير الذي كان ظهر على وجهه. حاولت كل في ما استطاعتها لكي يخبرها عما حدث، لكنه دفعها عنه، عقلياً إن لم يكن جسدياً. عيناه كانتا باردتين نائيتين... أشبه بكتلة جليدية طافية على وجه الماء في القطب الشمالي، لا شيء يمكن أن يصل إليه.

وفجأة، وبعد أن أذعنت لما أراد، إذا به يغير رأيه.

قال وهو يمد يده يستدعيها إلى جانبه بحركة متغطرسة من إصبعه:

«تعالي هنا».

فكرت في التمرد. فكرت في أن ترفض. لكن لحظة العصيان لم تستمر طويلاً. كيف يمكن ذلك وهو زوجها الذي تحبه؟ وإذا ما أرادت أن تنفذ الخطة التي وضعتها لتكسبه، ولتتشبث به إلى الأبد، فهذه هي الطريقة الوحيدة. عليها أن تجعله يرغب فيها لكي يحتفظ بها فلا يملّ منها، وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك بوجود هذه المسافة من المقعد الخالي بينهما.

- إستريللا...

كان في ندائه تحذير، تحذير بأن عليها ألاّ تجازف الليلة. وهكذا انتقلت إلى جانبه، وشعرت بذراعيه حولها فذابت في حرارته وقوته. وأدركت في لحظة لماذا لا يمكنها أبداً أن تحارب هذا الرجل، أو أن تتمرد عليه.

أخذت الحرارة تشتعل في أعصابها، ودمها يرعد في صدغيها، وتسارعت دقات قلبها ما جعل تنفسها صعباً. لقد ضاعت حتى قبل أن يعانقها.

لكنها أرادته أن يعانقها. فرفعت إليه وجهها...

لم يكن عليها أن تطلب أو أن تقول أيّ كلمة. لقد عرف ما تريد فكان تجاوبه سريعاً جعل قلبها يخفق ودمها يغني. لو كان عناقه خشناً وليس رقيقاً، قاسياً بدلاً من أن يكون مغوياً، لما اهتمت حقاً. لكن هذا الرجل وهو زوجها الآن هو رجل جديد، رجل أسمر يثير فيها الاضطراب. رجل لا تفهمه. لكنها تعرف وسيلة واحدة تصل بها إليه، وهي الوسيلة التي ستستخدمها الآن لتحقيق هدفها.

وها هي تصل إليه الآن، وهذا هو المهم. تجاوبه المتعذر التحكم فيه، الطريقة التي أدناها بها إليه، أبلغاها بذلك من دون الحاجة إلى

كلمات. استغلت انعطاف السيارة في الطريق، لتميل نحوه أكثر وتقع عليه بالرغم من وجود حزام الأمان.

فيما لم يتوقف عن العناق.

اليدان القويتان المتلهفتان جعلتا النار تسري في عروقها كما في الهشيم، وسرعتا دقات قلبها فيما زادتا من شوقها ولهفتها إليه.

كانت ضحكة رامون في أذنها تحمل معنى الانتصار والموافقة الصامتة.

تباً! إنها زوجته ولديه كل الحق في ان يمارس حقوقه. وهذا ما تريده هي بالضبط.

لمسة رامون الخبيرة كانت أشبه بالإنفجار في ذهن إستريللا. لم تستطع أن ترى. لم تستطع أن تسمع. فقدت كل إدراك عن المكان الذي هي فيه. إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الاستسلام لهذا الرجل.

كانت تهذي شوقاً إلى حد أنها لم تلاحظ أن السيارة توقفت، وأن السائق يتحدث إلى رامون. وعندما انتصب رامون جالساً بسرعة، مبتعداً عنها، تمتمت مستاءة تحاول أن تعيده إليها.

- إستريللا! لقد وصلنا.

وكان صوته خليطاً من التأنيب الساخط والضحك الماكر.

عندما أخذت تطرف بعينيها لتستيقظ من الذهول الذي تملكها، أمسك بها قائلاً: «انتظري فقط، يا حبيبتي يا هريرتي الصغيرة. السائق لن يمكث هنا، بل سينزل الحقائب فقط من السيارة ويعود أدراجه. سأتخلص منه بأسرع ما أستطيع. أعدك بذلك. ثم تكونين لي تماماً، اصبري...».

أخذت تفكر في كلامه ورأسها يدور. ماذا يمكنها أن تفعل عندما لا

تستطيع أن تفكر، أو أن تتكلم، وإنما تشعر فقط؟

نزلت من السيارة بشكل ما، وبقيت منتصبة بفضل ذراع رامون القوية التي طوّقت خصرها. شدّها إلى جسده القوي يسندها ولم يتركها لحظة واحدة ما جعلها شاكرة له، لكن وفيما كان هذا السند القوي مصدر راحة لها، سبّب لها أيضاً موجة من العذاب إذ قوّى شوقها إليه.

لم تكد تلاحظ حركة رامون وهو يُشرف على إنزال الحقائب بل انتبهت له، بشكل مبهم، وهو يشكر السائق، وإلى الهبة السخية التي منحه إياها قبل أن يعود منطلقاً في طريقه. ولم تعرف ما إذا كان الوقت ليلاً أم نهاراً وهي ترى رامون يصفق باب الڤيلا خلفهما ثم يستدير إليها... وأخيراً أصبحا وحدهما.

- وحدنا...

إنها الكلمة الوحيدة التي حاولت أن تنطق بها ونجحت في ذلك ما أصابها بالذهول. لكن صوتها بدا أبحّ متهدجاً وكأنه ينطلق من حنجرة ملتهبة.

وأجاب: «وحدنا... نعم وما زال شوقنا على حاله».

١٣ ـ لن أكتفي أبداً

استيقظت أستريلا ثم عادت لتغفو قبل أن تتحرك أخيراً، وتزمجر ثم تطرف بعينيها وتتمطى...

جمدت مكانها عندما تملكها شعور غريب بسبب السكون الذي يسود الغرفة.

لم يكن سكوناً مريحاً كما توقعت. ليس ذلك السكون المريح الذي يكتنف اثنين تزوّجا لتوهما.

لم تكن بين ذراعي رامون. كان رامون، في الواقع...

أين رامون؟

فتحت عينيها عنوة، وجاهدت لترفع نفسها متكئة على مرفقها، ثم أخذت تحدق من حولها لترى رامون جالساً على حافة السرير.

- ماذا تفعل؟

وقبل أن يتكلم شعرت بكل حاسة من حواسها وقد تنبهت خوفاً، تحذرها من خطر ما. كان رامون يرتدي ملابسه كلها من البنطلون الأسود إلى القميص الأبيض. وكان يتأملها مقيّماً ببرودة أثارت اضطرابها.

- ماذا... ماذا تفعل؟

- أنتظر أن تستيقظي.

كانت كلماته ببرودة نظراته إليها، برودة سرت إلى قلبها في لحظة.

- لماذا؟ هل حدث شيء؟ هل من خطب؟

جمد قلبها لابتسامته، ولوت يد باردة قلبها بعنف.

- كلا طبعاً، كل شيء سار كما توقعته أنت بالضبط.

- كما أنا... لا أدري ماذا تعني؟

وخطر لرامون ساخراً أنها تبدو ذاهلة حقاً، بعد أن رأى تقطيبها والحيرة في عينيها. في الواقع، بدت وكأنها لا تدري ما يعنيه. أراد أن يضحك عالياً لأنها تحاول أن تمثل دوراً يعلم أنها غير مؤهلة له. لكن، وفي الوقت نفسه، في أعماقه، في قلبه... ساوره، بالرغم منه، شعور غير مريح بأنها ربما، وربما فقط، لا تعلم حقاً ما يتحدث عنه.

لا... هذا غير ممكن... لابد أنها تعلم.

- لقد حصلت على ما تريدين تماماً.

ابتسمت وتمطّت بسعادة: «نعم، نعم، حصلت على ذلك».

كانت ابتسامتها أشبه بطعنة خنجر أحدث في قلبه جرحاً مؤلماً، لكنه غير مميت... ليس الآن. هل هو من الحماقة بحيث يبقى متعلقاً بفكرة أنها ربما لم تستغله بالشكل السيء الذي يظن؟

- وأنت، أنت حصلت على ما تريد، أليس كذلك؟

وفجأة، استقامت في جلستها، وتابعت سائلة: «أترى أبي تراجع عن الإتفاقية؟».

هز رأسه، لكن هذا لم يخفف من توتر ملامحه الوسيمة التي بقيت على برودتها وجفائها.

- لا، كان أبوك حريصاً جداً على أن يوقّع الأوراق.

طبعاً كان كذلك. وأراد رامون أن يهز رأسه مرة أخرى، لكن يأساً من نفسه هذه المرة. كان عليه أن يتعلم من ألفريدو العجوز... فالبنت

تماثل أباها. كان عليه أن يجعل هذا القول شعاره، لكنه، وبدلاً من ذلك، ترك مشاعرها الأخرى الضعيفة تجرفه.

- ولماذا مزاجك سيء هكذا؟

- كنت أفكر في زواجنا...

لم يصل إلى أي قرار لعين. لقد سبق وحدث نفسه بأن هذا لم يغيّر شيئاً وأنه كان يعلم أنها لم تتزوجه عن حب أو لأي سبب مماثل، فلماذا يساوره هذا الشعور الغريب بعد أن أدركَ أنها كذبت عن السبب الذي جعلها تتزوج من دون حب؟

- وأنا أيضاً. أول ما فكرت فيه عندما استيقظت، هو زواجنا.

تحركت نحوه ولمست ساعده الذي ثنى كم القميص عنه، فبذل ما في وسعه لئلا يستجيب لها. لكنه يريد أن يستجيب، فعدم الإستجابة أشبه بالجحيم حقاً. كانت بشرتها ما زالت متوردة من أثر النوم وعيناها مثقلتين وجفناها مرتخيين تعباً. وكان شعرها قد تشعث وتشابكت خصلاته حول وجهها.

تلهفت أصابعه إلى تسوية خصلاتها ووضعها خلف أذنيها، لكنه كان يعلم أنه إذا لمسها، فلن يستطيع أن يتراجع ويتركها.

وهكذا، أرغم نفسه على الجلوس، ببرودة وتصلب كتمثال من رخام جامد.

- آه، يا رامون، لا يمكن أن يكون هذا ما كدّرك...

واقتربت منه تريح رأسها على كتفه.

كان يعلم جيداً ما يحدث. تريد أن تلهيه. في السيارة، أقنع نفسه بأن هذا غير مهم، وأنه تزوجها لأنها تريده وهو يريدها... وهو ما زال يريدها أكثر من أي وقت مضى.

حدّث نفسه بأن زواجهما يمكن ان ينجح. واستقر أخيراً على هذا الرأي هنا، في سريره هذا.

لكن هذا لم يكن كافياً... لا يكفي ليرضيه، لا يكفي ليمحو من ذهنه أنها كذبت عليه، واستغلته. لا، هذا ليس كافياً.

- نحن نعلم أن بإمكاننا أن نجعل هذا الزواج ينجح.

قالت هذا بصوت منخفض أبح التف حول أعصابه وعذّب حواسه، جاعلاً الرغبة تغمره بعنف وقسوة، بقسوة لأنه يعلم أن عليه أن يكبح ذلك. المشاعر الجارفة ليست الحل رغم أن إستريللا تؤمن بذلك.

المشاعر المشبوبة تبهت، وقد تموت كلياً فماذا يبقى لهما حينذاك؟ ماذا ستبتغي حين تخفّ فرحة سيطرتها عليه فتبدأ بالنظر من حولها باحثة عن لعبة جديدة تلهو بها؟حتى أمه نفسها لم تخطط لتوقع جوان ألكولار في حبائلها، فقد وقعت في حبه كلياً ومن دون توقع.

- لقد اخترنا بأعين مفتوحة. كنا نعلم ما نريد... وقد حصلنا عليه.

- لكنك حصلت على أكثر بكثير مما ادعيت أنك تريدينه.

جعلها كلامه تسكت كلياً. أذهلها قوله حتى أنها فتحت فمها وهي تحدق إليه بحيرة. بدت عيناها ذاهلتين وكأنها تلقت لتوّها صفعة على وجهها. ونظرت إليه بحذر.

- أكثر مما... أكثر مما... نعم.

وضحكت ضحكة خافتة متوترة في البداية، سرعان ما ارتفعت بشكل مزعج خارج عن السيطرة تقريباً أثار أعصابه وزاد من توترها. وتملكه الغضب مجدداً.

- نعم، حصلت على أكثر بكثير مما توقعت. لكنني ما ظننت أنك ستدرك ذلك.

فقال مزمجراً وقد أعماه الغضب: «لم تظني حقاً؟».

كان غضبه ممزوجاً بالألم ما جعل قدرته على التفكير السليم تتلاشى، وغمر ضباب الغضب الأحمر عقله حتى لم يعد يرى... كان يشعر فقط.

لم يستطع البقاء بجانبها أكثر. لا يستطيع البقاء وهي تضمه إليها وتضع رأسها على كتفه، ظناً منها أن كل ما عليها أن تفعل هو أن تعانقه...

لا. وانتزع نفسه مبتعداً عنها بعنف فقدت معه توازنها وسقطت على السرير، بينما تحرك هو نفسه بسرعة أصبح معها في منتصف الغرفة. ثم استدار يواجهها محملقاً إليها رغم أن الضباب أمام عينيه لم يدعه يرى تفاصيل سقوطها ووجهها المستتر.

- إذن فأنت تعترفين بذلك! تقولين إنه صحيح؟

- نعم... أظن...

وصله صوتها واهناً من خلال الأزيز الفظيع الذي صمّ أذنيه، ثم سكت فجأة وجمد مكانه شاحب الوجه.

- كيف عرفت؟

- من أبيك طبعاً. لم تتوقعي أن يخبرني... مستمتعاً بذلك؟

- أبي...؟ ما الذي تتحدث عنه هنا، يا رامون؟

فانفجر قائلاً: «لا تحاولي التلاعب... والتراجع عما قلته يا «دونا إستريللا»، بعد أن اعترفت بأنه صحيح. أنت وأبوك حصلتما على ما خططتما له بالضبط. أنت حصلت على الزواج، حتى وإن كنت العاشر

في القائمة... والإرث الذي يترافق معه، حتى أنك حصلت على هبة غير متوقعة في الرجل الذي حصلت عليه في سريرك. هل هذا هو عيب الآخرين، يا إستريللا؟ أنك لم تشعري بالرغبة فيهم؟

لم تحاول أن تجيب، فحتى لو فعلت ما كان ليصغي إليها. وبدلاً من أن يسكت، استمر في الكلام يدفعه الغضب: «استعاد أبوك الاحترام لاسمه وهذا ما كان يريده، كما يحتمل أن يحصل على حفيد يرثه... وحصل على رجل ساذج يشتري منه شركته... أما أنا... فحصلت على القليل القليل».

- لا!

حاولت أن تتكلم لكنه لم يصغ إليها: «بل نعم، تباً لك. ولكن لن تحصلي على المزيد من ذلك، يا عزيزتي، هل تسمعين؟ لقد نلت ما فيه الكفاية... كل ما أستطيع تحمّله. أنت حصلت على زواجك، وأرجو أن يكون قد استحق كل هذا التعب، ومن الأفضل أن تأملي أن يقدم ما حصل بيننا الليلة إلى «بابا»، صغيراً يرث اللقب والميراث. أنصحك بأن تدعي الله كي تكوني حاملاً الآن، لأنك إذا لم تكوني ذلك، فأقسم أنني لن ألمسك مرة أخرى».

- رامون...

لكنه لم يحتمل الإصغاء إليها. ولم يستطع البقاء معها في الغرفة أكثر، لأنه يخشى إذا بقي، أن يفعل ما يندم عليه. فإما أن يقبلها وإما أن يقتلها، وهو لا يعلم حالياً أيّ الرغبتين هي الأقوى.

والرغبتان ستكون نتيجتهما كارثة مفزعة. لذا وكيلا يواجه النتائج استدار وخرج من الغرفة ثم نزل السلم إلى الطابق الأسفل ومنه إلى الباب الأمامي ففتحه بعنف جعله يصطدم بالجدار بضجة مدوّية. وبعد لحظة، كان خارج المنزل في الهواء الطلق البارد.

راح يسير من دون أن يدري إلى أين أو أن يهتم بذلك. لم يكن يريد سوى أن يبتعد، بقدر ما يستطيع، عن عروسه.

١٤ ـ كيف تجرؤ؟

لم تصدق إستريللا أنها استغرقت حقاً في النوم.

لم تكن تنوي ذلك بكل تأكيد. قررت أن تبقى مستيقظة تماماً، تستمع وتنتظر فقط عودة رامون.

حدثت نفسها بأنه مضطر للعودة مهما كان مقدار غضبه... كان ثائراً... لكن لا يمكن أن يرحل عن البيت وعن حياتها، ويختفي تماماً... أم لعله يستطيع؟

كان من الغضب بحيث يفعل ذلك، من الثورة بحيث بدا وكأنه وضع جناحين لقدميه، إذ أنها ركضت خلفه حالما استطاعت التفكير بوضوح، لكنها لم تدركه. كان قد خرج من المنزل قبل أن تصل إلى السلم، وصفقة الباب التي تردد صداها في أنحاء الردهة خير دليل على ذلك.

لذا، اندفعت عائدة إلى الغرفة، وارتدت ملابسها، وانتعلت حذاءها بأسرع ما تستطيع، لكنها أدركت في أعماقها أن لا أمل لها على الإطلاق في أن تجده أو تلحق به. وكان هذا صحيحاً فهي لم تجد له أثراً في الفناء أمام الڤيلا، أو لقامته الطويلة القوية على الطريق الذي أناره ضوء القمر، حتى بدا الليل نهاراً تقريباً ولم يبق مجال للشك.

عادت إلى المنزل وهي من الكآبة بحيث لم تكد تستطيع نقل قدميها، فأرغمت نفسها على الصعود إلى الطابق العلوي، محدثة نفسها

www.elromancia.com

بأنها ستنتظره في الغرفة حتى يعود. واستلقت على السرير.

أثناء الانتظار، ستراجع ذلك الشجار الفظيع الذي جرى بينهما قبل خروجه، وتحاول أن تحلل ما حدث، علّها تجد الخطأ.

كان هناك خطأ فادح ما، وهو ليس ما اعتقدت.

(أنت حصلت على أكثر بكثير مما ادعيت أنك تريدين).

رمى رامون بهذه الكلمات في وجهها، وفي غمرة النقاش وهي متعبة ومرتبكة للغاية من هذا التغيّر المفاجئ الذي حدث له، اعتقدت بأنه عرف سرّها. ظنت أنه يعني أنه عرف أنها وقعت في غرامه، فلم تجد ما تجيبه به إلا الاعتراف بالحقيقة.

حتى أنها ضحكت بتوتر وارتباك وشعرت بالضحك يصدر من أعماقها وكأنه نوع من الراحة. نعم، أرادت أن تقول له إنها وقعت في غرامه، وإذا لم يكن هذا ما يريده فهي آسفة... فهذه الحقيقة صدمتها بقدر ما صدمته كما يبدو، ولكن هذا ما كان ليفسد أي شيء، بكل تأكيد. لكنه لم يمنحها فرصة للكلام، وتملكها الرعب لعنف وقسوة رد فعله، والطريقة التي هاجمها فيها والاتهامات التي قذفها بها قبل أن يخرج كالعاصفة.

(أنت وأبوك حصلتما تماماً على ما خططتما له).

(بينما أنا... أنا لم أحصل إلا على القليل القليل).

لقد حصلت على ما تريد؟ ولكن ماذا عن شركة التلفزيون اللعينة تلك؟

بعد أن منعها توتر أعصابها وتعاستها من أن تصرخ وتبكي، لم يعد أمامها سوى أن تجلس، تعد الدقائق وتقفز كلما سمعت صوتاً غريباً يتعذر تفسيره... جلست تنتظر رامون وتدعو الله أن يعيده إليها، حتى ولو ليأخذ أمتعته.

لكنها نامت من دون أن تعي ذلك. كل ما تعرفه هو أنها أغمضت عينيها لحظة، وعندما فتحتهما، نبهها تغيّر الضوء إلى أن الليل تقدم عما كان عليه حين نظرت من النافذة. نظرت إلى الساعة فأدركت أنها الرابعة صباحاً.

كانت ملابسها مجعدة وقذرة بعد نومها فيها. تسريحة شعرها أصبحت أشبه بعش طائر وعش طائر غير متقن الصنع. كانت تشعر بصداع عنيف، وجفاف في الحلق، فتلهفت إلى شراب ينعشها.

قد يساعدها كوب من القهوة على التغلب على هذه الأعراض. فقد مضت ساعات منذ تركا حفل الزفاف كما كانت ليلتها مشحونة بالعواطف العاصفة. ربما ستتمكن بعد ذلك من أن تفكر بشكل قويم فتخرج بخطة تتصرف على أساسها. ولكن عليها أولاً أن تجد المطبخ.

لم تجد نوراً مضاء في الغرف غير المعروفة، وعليها أن تجد الطريق إلى الطابق السفلي بتلمّس الجدار أثناء سيرها في الظلام، وعليها هبوط السلم بحذر بالغ. كانت الردهة وغرفة الجلوس مظلمتين فيما حقائبهما لا تزال حيث ألقى بها رامون منذ ساعات.

إلى أي ناحية عليها أن تستدير لتجد المطبخ؟

- مفتاح الضوء إلى يمينك بالضبط...

جاء هذا الصوت من جوف الظلام فأجفلت وصدرت عنها صرخة واهنة.

قال رامون بهدوء: «لا تفزعي. هذا أنا. مفتاح الضوء بعلو الكتف».

وبعد دقيقتين من البحث المرتبك، وجدته فضغطت عليه ما أضاء الردهة وجعلها تطرف بعينيها بشدة بسبب الضوء الباهر المفاجئ.

كان رامون يجلس على كرسي كبير بذراعين في الزاوية البعيدة من

الردهة بجانب مدفأة فسيحة. بدا لها مخيفاً... بشعره المشعث الذي عبثت به الرياح في الخارج، والظلال الداكنة تحت عينيه اللتين خبا تألقهما، ولحيته النامية ما جعله يبدو كمتشرد سيء السمعة.

- كيف دخلت؟

هذا السؤال السخيف كان كل ما استطاعت قوله، فأجاب بصوت خفيض فاتر جامد كوجهه: «لدي مفتاح».

- لم أسمعك تدخل.

- ربما لأنني لم أشأ أن أوقظك.

والآن، كيف تفسّر هذا؟ هل عدم رغبته في إيقاظها ناتج عن اهتمام بها، أم لأنه لم يشأ التحدث إليها؟

- منذ متى وأنت هنا؟

نظر إلى الساعة المعلّقة على الجدار ثم إليها وردّ: «منذ ساعة أو ساعة ونصف تقريباً».

- وبقيت جالساً طوال الوقت على الكرسي؟

فأومأ باكتئاب: «كان لديّ الكثير لأفكر فيه».

- آه.

كان هذا كل ما استطاعت قوله. لم تجرؤ أن تسأله عما كان يفكر فيه... ولم تكن واثقة مما إذا كانت تريد حقاً أن تعلم ما توصّل إليه من قرار. ربما سيخبرها بنفسه. ولهذا، لجأت إلى مزيد من الكلام التافه كتعليل لسبب نزولها إلى الطابق السفلي: «كنت... أردت أن أحضّر شراباً.. أتحب أن أحضر لك شيئاً؟».

ما كادت تتلفظ بهذه الكلمات حتى هب واقفاً وعيناه متجهتان إلى باب في ناحية بعيدة من الغرفة: «سأحضّره أنا، فاجلسي أنت».

- لكنني...

حاولت أن تعترض لكنها سكتت عندما رفع يده يسكتها: «من الأسهل أن أحضّره أنا، فأنا أعرف مكان كل شيء. أتريدين قهوة أم شاياً؟».

- بل قهوة من فضلك.

كانت منهكة للغاية وتحتاج إلى القهوة لتنبّهها علّها تستطيع الكلام بتعقل.

وهذا لا يعني أنها تشعر بأنها قادرة على أن تنطق بجملة مفهومة مؤلفة من ثلاث كلمات، هذا ما اعترفت به لنفسها وهي تراه يتجه إلى ما افترضت أنه مطبخ. كانت الصدمة قد أحالت دماغها إلى عضو غير قادر على العمل.

لقد عاد رامون منذ ساعة أو أكثر، ولم يوقظها. أتراه صعد إلى الطابق الأعلى ليرى إن كانت بخير؟

- بماذا... بماذا كنت تفكر؟

جاء هذا السؤال بهدوء بالغ، وبتردد بالغ، وظنت أنه لم يسمعها لكنه وقف عند العتبة والتفت إليها قائلاً: «بعد أن أحضّر القهوة، ستتحدث».

لم تستطع أن تكتشف مزاجه من لهجته، كما أن عينيه لم تكشفا عن شيء. لكنه، على الأقل، قال إنهما سيتحدثان. وحالياً، عليها أن ترضى بذلك. فالإصرار على المزيد قد يبعده عنها مرة أخرى، وهي لا تريد المجازفة. ولذا، جلست وأخذت تنتظر.

(بماذا كنت تفكر؟) وبماذا أجابها؟

تساءل رامون أثناء انشغاله بإعداد القهوة.

ما الذي كان يفكر فيه بالضبط؟

إستريللا طبعاً.

إستريللا ولا شيء سوى إستريللا. إستريللا وعلاقتهما معاً، إن كان بينهما علاقة، أو إذا ما أراد علاقة. وإذا أراد علاقة فما هي الخطوة التالية وما هو مستقبلها؟

لطالما افترض أن علاقتهما ستصل إلى مكان ما، مكان ليس لديه أيّ فكرة عنه.

ثمة أمور كثيرة لا فكرة لديه عنها، والتفكير لم يساعده في إيجاد الرد.

لم يتطلب تحضير القهوة وقتاً طويلاً بما يكفي. وسرعان ما انتهت القهوة وصار عليه أن يعود إلى الغرفة الأخرى حيث تجلس إستريللا.

وضع فنجانها على منضدة بجانبها، ثم أخذ فنجانه إلى كرسي مقابل، لكنه قرر في آخر لحظة أنه يشعر باضطراب بالغ وتململ يمنعانه من الارتياح على الكرسي، ففضّل أن يقف مستنداً إلى الجدار، وناظراً إليها.

علم مسبقاً أنها ارتدت ثيابها، وذلك حين عاد إلى البيت الساكن المظلم بعد ساعات عدة من السير محاولاً، عبثاً، أن يفكر بصفاء. صعد إلى الغرفة ليراها، فوجدها مستغرقة في النوم بعد أن ارتدت ملابس الخروج.

وتمنى رامون بإخلاص لو أنها مستيقظة. عندئذ، على الأقل، لن تبدو مغرية كحالها الآن وهي مستغرقة في النوم.

إن هذا المنظر مغرٍ للغاية، وهو لا يريد أن يضعف أمامها. هذه الذكرى جعلته من الضيق بحيث أهرق القهوة في الصحن.

ضعيف! نعم، هذا ما كان يفكر فيه طوال الوقت، وهو وحده في الظلام. كان يفكر في شعوره وبسبب ضعفه أمام هذه المرأة.

- إذن، ما الذي تريد أن تتحدث عنه؟

- لا أظن أن ثمة مستقبل لهذا الزواج. لن ينجح.

- ولكن لِمَ لا؟ ما الذي تغير؟

- ما الذي تغير؟ حسناً، فكري في واقع أنني تزوجتك لأساعدك... قلت إنك تريدين الخلاص من مشاريع أبيك لتزويجك، تريدين أن تهربي.

- وقد فعلت ذلك.

كانت أصابعها متشبثة بشدة بفنجان قهوتها، وبدت أكثر شحوباً من أي وقت مضى.

- أنت تعلم أنني فعلت ذلك... فأنت رأيت بنفسك...

ردّ بلهجة لاذعة: «رأيت ما أردتني أن أراه. جزء واحد من الحقيقة وهو قناع الفتاة الغنية الصغيرة المسكينة الذي وضعته وأنت تمثلين ذلك الدور حيث تقولين: «عليّ أن أهرب... ولا يهمني بأي شكل أفعل ذلك».

- لم يكن هذا تمثيلاً.

- لا؟

تخلّى عن تظاهره بشرب القهوة التي لم يكن يريدها أصلاً، وألقى بالفنجان على رف المدفأة.

- لا، وأقسم على ذلك. أنت تعلم كيف كانت حياتي.

- أنا أعرف ما قلته عن شكل حياتك. يمكن أن يكون نصف كلامك كذباً. وأبوك...

- ألا تصدق أن أبي كان بالسوء الذي وصفته به؟ وتقول إن حياتي لم تكن تعيسة كما ادعيت؟ هل نسيت بهذه السرعة؟ كنت هناك عندما جاء... الضفدع... إستيبان راميرز...

قاطعها قائلاً: «لقد رأيته وصدقتك حينذاك. لكن ما لم أعرفه هو أنك كنت قد قررت من تريدين، تماماً كما قررت مرة أنك تريدين كارلوس».

جاء قوله هذا بشكل غير متوقع وبقوة مذهلة ما جعل رأسها يرتد إلى الخلف لشدة الصدمة. نظرت إليه بذعر وهي ترتجف: «هل هذا ما قاله أبي... ؟ هل هذا ما تعتقده حقاً؟ تظن أنني...».

ونظرت من حولها في أنحاء الغرفة، ورأت حقيبة يدها التي ألقتها على خزانة الأدراج عند وصولهما. اختطفتها وقذفتها إلى رامون من دون الاكتراث بما إذا تلقّاها أم لا.

- أنظر داخل هذه... هيا... افتحها... ألق نظرة.

وبذهول تام، فعل ما طلبته منه. وداخل الحقيبة، مع بعض الأغراض النسائية، رأى مغلفاً أبيض في داخله مستند رسمي يحمل تواقيع وتاريخاً وطوابع.

وثيقة زواج...!

- ما الذي...

وللحظة، ظن رامون أنها وثيقة زواجهما، ثم عاد ينظر مرة أخرى. رأحت الأحرف تسبح أمام عينيه عندما رأى الأسماء والتواقيع.

إستريللا مدرانو.

كارلوس بيريا.

- ما هذه يا إستريللا؟

- ألا ترى؟ ألا تقرأ؟ ماذا تظنها؟

- إنها وثيقة زواج.

وما زال لا يصدق ما قاله.

- أنت وكارلوس... ولكن... نحن...

- لا تقلق.

وتخلت هي أيضاً عن ادعائها أنها تشرب قهوتها.

- لا تخف فهذا لا يعني أننا نواجه مشكلة بتعدد الأزواج... بل هذه كانت مشكلة زواجي بكارلوس! وهذا لا يعني أنه أخبرني، بل على العكس. فما كنت لأتزوجه لو علمت.

- هيه... ولكنك تزوجته.

- كيف تظنه أقنعني بالهرب معه؟

ظهرت المرارة في كلماتها، كما راح صوتها يرتعش، ولمعت في عينيها الدموع. شعر رامون وكأنه تلقى صفعة قوية على وجهه.

- أحقاً لم تكوني تعرفين أنه متزوج؟

- لقد أقسم على ذلك!

- ولكن كيف لم تعرفي؟

- كان كارلوس يعيش في المنطقة من قبل، لكنه انتقل بعيداً. وكنت أنا أيضاً بعيدة، في المدرسة، ثم في الكلية. لم أكن أعلم ما حدث له. كل ما عرفته أنه عاد. وكانت زوجته وأولاده قد بقوا في بيتهم القديم، في مدينة أخرى. كانت أمها مريضة فبقيت للعناية بها. أظن أنّ أحداً لم يقل شيئاً لأنهم كانوا يعلمون، فافترضوا أنني أعلم.

وأخذت نفساً عميقاً تقوّي به عزيمتها، بينما كانت يداها منقبضتين، والألم ينعكس في صوتها.

- جعلني أعده بأن أبقي مواعيدنا سراً. قال إن أبي لن يوافق أبداً. وكان هذا صحيحاً طبعاً. اكتشفت الآن أنه أراد فقط أن يعاشرني. وبما أنه علم أنني كنت خائفة جداً من ذلك، طلب مني أن يتزوجني.

- وهل هذا هو سبب هربك معه؟

تملكته الصدمة لما أخبرته به. وأدرك كم أخطأ بحقها كما فعل الكل.

- متى عرفت الحقيقة؟

غامت عيناها وهي تتذكر التعاسة التي عانتها في ذلك اليوم الرهيب، وأجابت: «عندما اتصلت زوجته بالفندق لتخبره أن... أن ابنتهما الصغيرة مريضة وبحاجة إليه».

كان جواب رامون قصيراً وغاضباً للغاية: «وأنت أجبت على الهاتف؟».

- نعم...

- آه، إستريللا.

لم يستطع سوى أن يهز رأسه غير مصدق سلوك الرجل الآخر السافل.

- ولكن... أنت... لماذا لم تخبري أحداً؟

خفضت بصرها إلى الأرض: «وما الفائدة؟ مات كارلوس في حادث اصطدام بعد أسبوع من اكتشافي الحقيقة. زوجته وأولاده كانوا قد تألموا بما يكفي فلم أشأ أن أضيف... إلى عذابهم عذاباً بإخبارهم الحقيقة».

- وهكذا، انصب اللوم كله عليك؟

هزت كتفيها من دون اكتراث: «استطعت التغلب على الصعاب. لم أظن أبداً أن قصتي ستستمر طوال تلك المدة، وقد اعتدت أن أكون مصدر خيبة أمل لأبي. لطالما كنت كذلك. منذ لحظة ولادتي، ولدت أنثى فيما أبي يريد ذكوراً، لكنه لم يرزق بهم لسوء الحظ. كنت أنا آخر فرصة سنحت لأبويّ، إذ كان أبي قد تجاوز الخمسين عندما ولدت، وأمي لم تستطع إنجاب المزيد من الأولاد. اراد أبي إبناً يستلم منه أملاكه ويتزوج من امرأة شابة مناسبة هادئة حسنة السيرة تمنحه المزيد من الأحفاد الذكور ليكملوا سلالة مدرانو، لكن ما حصل عليه...».

وسكتت، ونظرت لحظة إلى نفسها ساخرة، ثم أشارت إلى قوامها الرشيق: «ما حصل عليه هو أنا، ومنذ ذلك الحين لم يغفر لي، أو لأمي ذلك».

- لا أدري كيف يخيب أمل شخص ما بسبب فتاة مثلك. لقد أدركت أن أباك أحمق دنيء، وهذا يثبت رأيي. لكنني مثله لأنني صدقت ما قاله عنك.

عندئذ رفعت وجهها الشاحب إليه وقالت بابتسامة ضعيفة: «أنا... أخبرته أن الشخص الوحيد الذي سأقبل به من بين كل الذين اختارهم لي هو أنت».

- وبقية الأمور؟ ألن تخبريني بها؟

- وذلك المغلف الذي في حقيبتي، لماذا تظنني أحضرته؟ أردتك أن تراه وأن تعرف الحقيقة. تعرف كل شيء. كنت سأخبرك الليلة الماضية، لكنك... لكننا...

وسكتت، لكن الطريقة التي نظرت بها إلى الباب المفتوح ومن خلفه السلم، حدثت بقصتهما.

- أنا آسف.

كان هذا كل ما استطاع أن يقوله، إذ لم يستطع أن يفكر في شيء آخر. أي كلمة تريها مدى تعاطفه، وأنه فهم؟ وأنه يحتقر الطريقة التي خدعها بها ذلك الرجل؟

- وهل لامك أبوك على هذا؟

فقالت بمرارة: «أنت تعرف أبي. الرجال قديسون دوماً. وإذا ضلوا فالمرأة هي الفاسقة الشريرة. لذا، من المفترض أنني أنا الآثمة، وأنا من قاد كارلوس إلى الإثم».

- كم أودّ لو أقتل ذلك النغل.

كانت ابتسامتها ضعيفة ذاوية لكنها أظهرت ومضة من إستريللا القديمة التي يعرفها، ما مزّق قلبه.

- لا أظن أنّ هذا يفيد بشيء، ولكن... شكراً...

وتهدج صوتها وتنهدت فأصابها فواق كادت تختنق معه. وفي لحظة، أصبح بقربها، حيث ركع على ركبتيه واضعاً ذراعيه حولها يضمها إليه بشدة، وهو يقول بصوت أبح: «آسف... آسف للغاية. كان عليّ أن أعلم...».

دفنت رأسها في كتفه لحظة فشعر بدموعها تبلل قميصه. كل ما استطاع فعله هو أن يمرّ بيده على ظهرها وشعرها...

تمنت لو تبقى في هذا الوضع، بين ذراعيه، ولا ترفع رأسها أبداً... أرادت أن تبقى هنا حيث هي آمنة مطمئنة وفي مكانها المناسب... لكن لا يمكن لهذا أن يدوم إلى الأبد. لا يمكن له أن يحل المشكلة التي أغضبت رامون حتى أراد أن يتركها.

توقفت شهقاتها أخيراً، وأخذت تمسح دموعها بقفا يدها ثم رفعت

رأسها. نظرت بعينيها الدامعتين إلى عينيه الفضيتين فأدركت ما ارتابت فيه، وهو أن هذا لم يكن أساس المشكلة. قالت: «لكن... ولكن هذا ليس المشكلة، أليس كذلك؟ هذا ليس ما أغضبك كثيراً. ثمة شيء آخر».

بدا عليه الارتباك، فنهض وجلس على ذراع الكرسي.

- يمكن لهذا أن ينتظر.

- لا، غير ممكن! لن أدعك تؤجل ذلك. إذا كنت ستتهمني بالكذب و... تتحدّث عن القليل الذي حصلت عليه، فيمكنك على الأقل أن تقدم، وبكل لياقة، الإثباتات على ذلك. من أخبرك؟؟

فتنهد: «أبوك».

- أبي؟ وماذا قال؟ ماذا أخبرك؟ ولماذا تصدقه وأنت تعرف أنه يقول أي شيء... يفعل أي شيء...؟

- أليس صحيحاً إذن أنه قال إنه سيتبرأ منك إذا لم تتزوجي؟

- آه.

كان هذا كل ما تمكنت من قوله فيما الصدمة تخدر ذهنها. ماذا بإمكانها أن تقول غير هذا؟ لا سبيل لإنكار ذلك. صمتها جعله يقول: «إنه صحيح. أليس كذلك؟ هددك بأنك ستعيشين من دون مال ومن دون أي إرث... إلا إذا تزوجت؟».

- نعم.

- ماذا؟

مال رامون إلى الأمام والاهتمام في وجهه: «ماذا؟ لم أسمعك؟».

- قلت نعم، نعم، نعم! قال أبي إنه سيحرمني من المال... وإنه سيلقي بي في الشارع. هل تصدق هذا؟ هل هذا ما تريد أن تعرفه؟ هل

أنت سعيد الآن؟

فقال وهو يهب واقفاً: «لا. لا.».

- ما الذي تنكره؟ أتقول إنك لا تصدق، أو...

- لا. هذا لا يجعلني سعيداً! إنه آخر شيء أريد أن أسمعه.

من الغريب أنها صدقته. لكن وفي خلفية ذهنها، شعرت بشك كريه. شك هدد صفاءها الذهني بشكل أقوى من أيّ شيء آخر.

- هل تظن أن هذا هو السبب الذي جعلني أتزوجك؟ تظن أنني تزوجتك من أجل المال فقط؟

لم يكن بحاجة إلى أن يجيب، فقد قرأت الرد في وجهه. الغضب، التمرد، أثر من الشعور بالخيانة... كل هذا كان موجوداً. بإمكانها أن تخبره الحقيقة... وتثبت له خطأه. لكن غضبها منعها من ذلك حالياً.

- أتجرؤ على أن تظن ذلك؟ ... كيف تجرؤ؟

- أنت اعترفت...

- أنا لم أعترف بشيء، بل أخبرتك بكل بساطة أن أبي هددني حقاً بحرماني من الميراث. ألديك الشجاعة والوقاحة لكي تتحدث عن الأخلاق وتدّعي القداسة وأنت الذي... الذي تزوجتني فقط من أجل شركة التلفزيون اللعينة تلك!...

- لا!

- بل هذا صحيح... هيا يا رامون... لا تحاول أن تتملص من ذلك الآن! لا تنسَ أنك من أخبرني بأن أبي عرض عليك الصفقة... قائلاً إن بإمكانك أن تشتريها بنصف الثمن الذي تستحقه. وقد وقّعت الاتفاقية اليوم... بل أمس. حتى أنك لم تستطع أن تصبر. لقد وقّعت

اتفاقية الشركة يوم... عرسنا... أليس كذلك؟

فقال بصوت خشن: «نعم».

- إذن...

- ولكن ليس بنصف الثمن. أراد أن يعطينيها «هدية زواجنا».

فهتفت بازدراء والألم يكاد يقتلها: «أحقاً؟ إذن، فقد حصلت على صفقة أفضل مما توقّعت. حتى أنك لم تدفع الثمن المطلوب».

- لا، لأنني لم أدفع...

- لم تدفع شيئاً. أخذتها مجاناً.

- إستريللا...

كانت صرخته أشبه بزئير أسد، عالي متوحش يطالب بالاحترام فأسكتها على الفور.

- أنا لم أحصل عليها مجاناً... بل دفعت كامل ثمنها اللعين كاملاً. الثمن الأساسي الذي طلبه مني، حتى آخر قرش. وكنت سأدفع أكثر لو اضطررت لذلك.

فتحت فمها ثم أقفلته. حاولت أن تقول شيئاً لكن صوتاً لم يخرج من فمها.

- ولكن... ولكن لماذا؟

- أليس السبب واضحاً؟

- ليس بالنسبة إليّ. ليس واضحاً أبداً. ماذا يجعل أي شخص، خصوصاً أنت، يدفع ثمناً كاملاً لما عُرض عليه بنصف ثمنه... ومن ثم كهدية؟

كانت ابتسامته الملتوية تحمل معنى السخرية، وبدا الاستخفاف بالذات في عينيه، وهو ينظر في عينيها ويتنفس بعمق: «لأنني أحبك».

رأى رامون أنه الوقت المناسب للاعتراف بذلك. فهذا هو الجواب الوحيد... التفسير الوحيد لما كان يشعر به. كل ما في الأمر أنه لم يحاول أن يعترف بذلك، حتى لنفسه. كان يعرف الحقيقة حتى وهو يرحل عنها.

وإلاّ لماذا آلمته وأغضبته إلى هذا الحد فكرة أنها كانت تستغله وتكذب عليه؟ وعندما أدرك أن ليس لديه بديل سوى أن يعود أدراجه إليها، واجه حقيقة أن لابدّ له أن يعترف بشعوره نحوها. إما أن يفعل هذا، وإما أن يفقدها. وهو لا يستطيع العيش من دونها.

- أنت...

كانت إستريللا لا تزال تجاهد لتتأكد مما قال: «لكنك... لكنك قلت إن زواجنا لا مستقبل له».

فقال بخشونة: «أنا لا أرى له مستقبلاً فعلاً، ولا أظن أنه سينجح بينما الحب من طرف واحد».

- لكنك رفضت عرض أبي في البدء.

- نعم...

وأخذ، مرة أخرى، يدور في أنحاء الغرفة متململاً كنمر في شرك.

- كان هذا هو الحل الوحيد الذي استطعت إيجاده... لم أشأ أن تظني أنني تزوجتك لأحصل على الشركة.

- لكنني أنا التي اقترحت هذا أساساً لزواجنا.

استدار رامون يواجهها، عالماً أنّ عليه أن يقول الحقيقة ولا شيء سواها: «لم أستطع البقاء على قراري. رغم أنني، حينذاك، لم أكن قد اعترفت لنفسي بأن ما أشعر به هو الحب. عرفت فقط أنني لم أشأ لزواجنا أن يبدأ بهذا الشكل. نعم، كنت أريد الشركة، لكنني أردتك

أكثر بكثير... وإنما دون قيود وشروط ومكافآت مالية».

وفجأة، تقدمت منه وأمسكت بذراعه فوقف جامداً ونظر في عينيها الملتهبتين: «عندئذ، أخبرك أبي أنه هددني بعدم توريثي، أليس كذلك؟».

- نعم، نعم. هذا صحيح.

- لكنه لم يوجه إليّ هذا التهديد إلا بعد أن طلبت منك أن تتزوجني. ذلك اليوم في القصر... عندما جئت لكي... لكي تخطبني للزواج... عندما كان «الضفدع» هناك، حينذاك أنذرني أبي نهائياً. إما أن أتزوج وإما يحرمني من الميراث.

توسلت عيناها إليه أن يصدقها، وأراد هو أن يصدقها. وتذكر فجأة قصة أخبره بها أخوه أليكس عن عروسه لويز حين تأكد أنها لم تسعَ إليه من أجل أمواله.

عندئذ، سأله: «كيف أقنعتك بأنك مخطئ؟».

احمرّ أليكس خجلاً وقال إن هذا سرّ بينه وبين زوجته. وأضاف: «أدركت فجأة أنها ما كانت لتفعل ذلك، مهما قالت أو فعلت. أدركت أن ليس بمقدورها أن تستغلني بذلك الشكل».

قالت إستريلا: «رامون، أرجوك أن تصدقني».

وفي تلك اللحظة، أدرك رامون أن أخاه كان على حق. لم يكن بحاجة إلى برهان، لم يعد بحاجة إلى إثبات. لقد عرف وحسب.

قال بإخلاص: «أنا أصدقك».

وأخذت نفساً عميقاً ثم زفرت ببطء وقلبها يرقص فرحاً لما سمعته. إنه يصدقها كما أنه يحبها. ماذا تريد أكثر؟

والآن، جاء دورها. عليها أن تسرع فقد جعلته ينتظر طويلاً. عليها

أن تخرجه من تعاسته بسرعة.

- رامون... أنت تعرف ما قلته عن أنك تظن أن زواجنا لن ينجح لأن الحب بيننا من طرف واحد...

النظرة التي ارتسمت في عينيه مزقت قلبها فيما غشت دموعها عينيها.

- لا أظن أن بإمكاني احتمال ذلك.

- لا تظن أن بإمكانك احتماله! أواه، يا رامون...

وأمسكت بيده بشدة: «ولا أنا، ماذا إذا كان حال أحدنا من حال الآخر؟».

وبقيت عيناها في عينيه، وشعرت به يضطرب فجأة، ثم ظهرت فيهما نظرة أمل مفاجئة عندما أدرك ما تعنيه.

- هل أنت...؟

- نعم... نعم، أنا أيضاً أحبك. أحبك من كل قلبي وروحي وجسدي. السبب الحقيقي الذي جعلني أطلب منك أن تتزوجني هو أنني وقعت في حبك ولم أستطع أن أمنع نفسي. أريد أن أخبرك أنك لست العاشر في قائمتي بل لطالما كنت الأول. أريد أن يكون زواجنا هذا صحيحاً. زواج حب ومشاركة لبقية حياتنا. وأنا مثلك، لا أحتمل أي شيء آخر.

رأت جوابه في وجهه قبل أن يأخذها بين ذراعيه وهو يطمئنها: «لست بحاجة إلى ذلك، فقد ابتدأ زواجنا الحقيقي الآن، بعد أن علمت أنك تحبينني وعلمت أنني أعبدك ولا أستطيع أن أعيش من دونك. ولإثبات ذلك...».

وجرها من يدها إلى الباب الزجاجي الضخم فخرجا إلى الفناء

الداخلي ومنه إلى شرفة كبيرة أمام المنزل. كانت الشمس قد ابتدأت لتوّها بالشروق لتنير السماء.

وهناك، كرّر وجدّد عهود الزواج التي قدمها بالأمس، كما كررت إستريللا عهودها له مع بدء يوم جديد، وبدء حياة جديدة معاً حافلة بالحب.

www.elromancia.com